

أنطون تشيخوف

يوميات مسافر

(قصص قصيرة)

ترجمة: د. ولاتو يوسف عمر

دار الحصاد

طباعة— نشر—توزيع

ص.ب. 4490

هاتف: 2134692

فاكس: 2126326

الطبعة الأولى 2008

جميع الحقوق محفوظة للمترجم

أنطون تشيخوف

يوميات مسافر



ترجمة
د. ولاتو عمر

أغافيا*

عندما كنت أزور قضاء (س) ، كنت أعرج مرارا على بساتين "دوبوفسكي" و أمرُ على "سافا ستوكاتش" -أو ببساطة: "سافكا". كانت هذه البساتين مكاني المفضل للقيام بما يسمى "محاولة" صيد السمك. إذ إنك عندما تخرج من البيت لا تعرف في أي يوم أو أية ساعة ستعود أدراجك. تأخذ معك كل تجهيزات صيد السمك و المؤن الغذائية. لم يكن يشغلني، في الحقيقة صيد السمك بقدر ما يروق لي التسكع خالي البال و تناول الطعام وقت أشاء والتحدث إلى "سافكا" والخلوة الطويلة بليالي الصيف الهادئة. كان "سافكا" يبلغ الخامسة والعشرين من العمر، طويل القامة ووسيم الشكل وذو صحة ممتازة كحجر الصوان. إشتهر بمصافته و فطنته وكان متعلما. نادرا ما يشرب الفودكا ولكن هذا الشاب القوي لم يكن يساوي قرشا واحدا في عمله. إلى جانب صلابة عضلاته الشبيهة بالمرس المتين، كان يستشر في عروقه كسل شديد الوطأة لا يقهر. كان كبقية أهالي القرية يسكن في بيته الريفي ولديه قطعة أرض لا يداريها ودون أن يمارس مهنة أخرى رغم إن أمه العجوز كانت تتسول في القرية وهو بذاته كان يعيش طليقا كالطير: لا يدري ماذا سيأكل في الصباح و في الغداء. لم يكن يعني ذلك إن الإرادة أو الطاقة أو الشفقة على والدته لا تسعفه ولكن لم تكن لديه - ببساطة - الرغبة في العمل و لم يكن يعي فائدة ذلك.. وكان ينبعث من هامته كلها الهدوء وشغف غريزي - إرستقراطي إلى حد كبير، نحو العيش سدا و بلا مبالاة . وعندما كان جسده القوي يشده للقيام بعمل عضلي ما، كان هذا الشاب ينهمك بكل قواه، لوقت قصير في عمل ما فارغ وسخيف كالقيام بشذب وتد عديم الفائدة أو التسابق مع النساء. كانت وضعية التركيز بلا حراك هي وضعيته المحببة. كان بمقدوره الجلوس في مكان واحد دون حراك وهو يحرق في نقطة واحدة ساعات طويلة. أما حركته فكانت بإيجاء فقط حين تسنح الفرصة للقيام بعمل ما بسرعة وباندفاع شديد: كالإمساك بذيل كلب شارد أو خطف منديل امرأة أو القفز فوق حفرة عريضة. ومن البديهي أن يجعل هذا البخل في الحركة "سافكا" معدما... كان يعيش أسوا من أي عازب كان. مع مرور الوقت، بات من الطبيعي أن يدفع هذا الشاب القوي ضريبة ذلك. كان يخال إليك إنه أرسل إلى هذا العالم ليشغل مكانا بين العجزة، أو حارسا وفزاعة للبساتين العامة. لم يكن يعر أي إهتمام لسخرية الناس من عجزه المبكر. لقد كانت هذه البقعة الساكنة والمريحة للتأمل الهادئ تلائم طبيعته.

حدث إن زرت "سافكا" هذا في إحدى ليالي أيار الجميلة. أتذكر كيف كنت مستلقيا على لحاف رث ومستو بالقرب من العزبة التي كانت تفوح منها بقوة وكثافة رائحة أعشاب جافة. أسندت رأسي على يدي ونظرت إلى الأمام. كانت هناك مذراة خشبية ملقاة بالقرب من قدمي وخلفها "كوتكا" -كلبة "سافكا" الرقطاء وعلى بعد مترين ونصف من "كوتكا" كان الحقل ينتهي بصفة فمر شديد الإنحدار. لم يكن بمقدوري

رؤية النهر بوضعية الإستلقاء. كنت أرى أعالي أشجار الصفصاف الكثيفة على هذه الضفة، وطرف الضفة النهر الأخرى المتعرجة كانت كما لو إنه تم قرضها. وبعيدا عن الضفة، على الراية الظليلة القائمة كانت بيوت القرية- حيث يسكن "سافكا"-متلاصقة الواحدة بالأخرى كصغار طيور حجل مذعورة... وخلف الراية حل الغروب وبقيت مسحة نور إرجوانية باهتة، بدأت تغطيها هي أيضا غيوم صغيرة كفحم مكسو بالرماد.

على يمين البستان تراءت أحراش شجر الحور بلونها المكفهر، تمتز بهدوء من حين إلى آخر بفعل هبوب رياح غير منتظرة. على يسراها إمتدت الحقول الشاسعة. وهناك، في الظلمة، حيث تعجز العين عن تمييز الحقول من السماء، تألق نور جلي وواضح. جلس "سافكا" إلى جانبي طاويا ساقيه تحته على الطريقة التركية، مرخي الرأس، يُحدق في "كوتكا" متأملا. كانت صنائيرنا بطعومها منصوبة على النهر منذ وقت طويل وما كان علينا إلا أن نستسلم للراحة التي يجلبها "سافكا". إنه لا يشعر بالإرهاق أبدا إذ أنه كان في راحة دائمة. لم ينته الغروب تماما لكن الليل الصيفي كان قد غمر الطبيعة برقته المخدرة.

تسمر كل شئ وإستسلم لنوم عميق عدا طائر غير معروف بالنسبة لي يُصدر صوتا في الأحراش، ممطوطا و إنسيابيا واضحا أشبه بالكلمات التالية: "هل ر- أ- ي - ت ني- كي- تا؟" و يرد الجواب بنفسه: "رأيتنه - رأيتنه- رأيتنه!".

-لماذا لا تغني البلبل الآن؟- سألت "سافكا".

إلتفت إلي ببطء. كانت ملامح وجهه غليظة لكنها واضحة و معبرة وناعمة كما لدى النساء. من ثم تطلع بعينه الوديعتين و المتأملتين نحو الأحراش والصفصاف وأخرج من جيبه مزماره ودسه في فمه وبدأ يصدر صوتا كصوت البلبل. وفي نفس اللحظة-أشبه بجواب على عزفه خفق الكراكي بجناحيه من الضفة الأخرى! -تفضل! هذا هو البلبل...-إبتسم "سافكا"-كش-كش! كش-كش! تحسبه يهز الصنارة ويعتقد يانه يغني أيضا!.

-يعجبني هذا الطائر...-قلت له- هل تعلم يان طائر الكراكي لا يطير في موسم الهجرة من مكان إلى آخر و إنما يجري...يطير لعبور الأنهار والبحار فقط.

-ياله من كلب!...-تمتم "سافكا" وهو ينظر بإحترام باتجاه طائر الكراكي الذي كان يزرق. كنت أعلم بحب "سافكا" للإنصات ولذلك حدثته عن كل شئ أعرفه من كتب الصيد عن طائر الكراكي. و تحولت بالتدريج من الحديث عن الكراكي إلى هجرة الطيور. كان "سافكا" يستمع إلي بانتباه دون أن ترف له جفن ويتسم طوال الوقت بغبطة.

-أي الأقاليم أحب إلى الطيور أكثر؟-سألني- أقاليمنا أم أقاليمهم؟

-أقاليمنا طبعاً، لأن الطيور تولد وتلد هنا. هذا موطنها وتهاجر لكي لا يقضي عليها البرد.

-شئ ظريف!-أردف "سافكا"- الحديث عن أي شئ ظريف دائما. إذن الطيور مثل الإنسان...لو أخذنا هذا الحجر- لكل شئ عقله!...آه، لو علمت يا سيدي بإنك قادم لما دعوت تلك المرأة إلى هنا...رغبت إحداهن في المجيء الآن...

-آه، لا تقلق. لن أزعجكم!-قلت له-أستطيع الإستلقاء في الأحراش.
-دعك من هذا! لو إنها جاءت غدا لما أصيبت بمكروه...ليتها تجلس هنا وتستمع إلى الأحاديث. لا بد من إنها ستسترخي ولن نتحدث في شئ مفيد بوجودها.
-تنتظر "داريا"؟-

-كلا...أخرى جديدة أصرت على المجيء... "أغافيا"، زوجة عامل السكك الحديدية...
قال "سافكا" ذلك بصوته العادي الرصين والخافت إلى حد خلته يتحدث عن التبغ أو العصيدة. أما أنا فدُهشت جدا. كنت أعرف "أغافيا" تلك...كانت ما تزال امرأة شابة لا تتعدى التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها. تزوجت قبل أقل من سنة من ذلك الشاب المقدم، عامل السكك الحديدية. كانت تعيش في القرية و يقضي زوجها ليلته معها بعد العمل.
-مغامراتك كلها مع النساء لن يكون لها عواقب سليمة يا أخي.-قلت متنهدا.
-فليكن...-

و بعد أن فكر قليلا أضاف:

-لقد حذرتم، لكنهن لم يأمن بذلك...الغبيات لا يكثرن بشيء.
خيم الصمت...بينما تكشف الظلام ففقدت الأشياء أشباحها واختفى شريط الضوء خلف الرابية، أما النجوم فأصبحت أكثر تألؤا وإشعاعا...لم يفسد صرير الجنادب الرتيب والممل و لا خفقان أجنحة الكراكي ولا زعيق الحجل هدوء الليل، بل بالعكس كانوا يصفون إليها رتابة كبيرة أيضا. وخيل إلي إن النجوم التي تطل علينا من السماء هي التي تصدر أصواتا تسحر الآذان وليست الطيور والحشرات...
"سافكا" كان أول من أحلّ بالسكينة وحولّ ببطء نظره من "كوتكا" السوداء نحوي وقال:
-يبدو، يا سيدي إنك تشعر بالملل. هيا نتناول طعام العشاء.

زحف على بطنه ودخل الكوخ دون أن ينتظر موافقتي. وعبثه في الداخل جعل الكوخ كله يهتز كورقة شجر واحدة ومن ثم زحف خارجا ووضع أمامي الفودكا التي جلبتها وكأسا كبيرة فيها بيض مسلوق ورقائق شحم وقطع من الخبز الأسود وأطعمة أخرى...شربنا من أقداح معوجة لا تثبت على قاعدتها ومن ثم باشرنا بالأكل... ملح خشن ورقائق شحم قدرة وبيض مرن كالمطاط...ما أذهأ!!

-من أين لك كل هذه الخيرات وأنت أعزب؟-قلت له و أنا أشير إلى الكأس-من أين؟
-تجلبها النساء...قالها متمتما.

-ما القصد من ذلك؟-

-هكذا... في سبيل الشفقة...

كانت ملابس "سافكا" بالإضافة إلى مختلف الأطعمة تحمل أيضا آثار "شفقة" نسائية. لاحظته هذا المساء يرتدي حزاما صوفيا ووشاحا قرمزي اللون براق يتدلى منه صليب نحاسي إستقر على رقبتة الوسخة. كنت على معرفة جيدة بميل الجنس اللطيف إلى "سافكا" و أيضا تكتمه في الحديث عن ذلك، لذا توقفت عن إستجوابه لأن الوقت لم يكن مناسباً... "كوتكا" التي كانت تحوم حولنا وتنتظر بصبر لقمتها أصاحت فجأة بإذنيها وتلملت. سُمعت من بعيد طرشة ماء متقطعة.

-هناك أحد ما قادم يعبر الماء...-قال "سافكا".

بعد ثلاث دقائق تلملت "كوتكا" من جديد وأصدرت صوتاً أشبه بالسعال...

-صه!-صرخ بها صاحبها.

سُمعت خطوات وجلة في الظلمة ولاح شبح امرأة من بين الأحرار. لقد عرفتها، رغم الظلام-كانت "أغافيا". إقتربت مترددة نحونا وتوقفت تتنفس بصعوبة. كانت تلهث بسبب المشي ولعل ذلك بسبب الهلع والمشاعر غير المستحبة التي يعانيتها المرء في أثناء عبور النهر ليلاً. وعندما رأت شخصين بدلاً من واحد قرب الكوخ أطلقت صرخة ضعيفة وخطت خطوة إلى الوراء.

-آآ... هذه أنت!-قال "سافكا" وهو يدس الرغيف في فمه.

-أنا... أنا. -تمتمت هي مُسقطاً صرة بداخلها شئ ما على الأرض ومحدقة في وجهي بريية- أبلغك تحيات "ياكوف" وكلفني أسلمك هذا... هناك شئ ما...

-حسناً، لماذا الكذب: "ياكوف"! -سخر منها "سافكا"- لا داع للكذب، إن السيد يعلم لماذا جئت!

إجلسي وكوني ضيفة.

جلست "أغافيا" بتردد وهي تنظر بريية نحوي.

-ظننتك لن تأت لأن...-قال "سافكا" بعد صمت قصير- لماذا تجلسين هكذا؟ كُلي! أم أسكب لك الفودكا لتشربي؟

-هراء.-قالت هي- تحسبني سكيراً؟...

-إشربي... ستشعرين بالدفء...هيا!

ناولها "سافكا" القدح المعوج فشربت ببطء دون أن تأكل شيئاً. نفخت فحسب.

-جلبت شئ ما...-أكمل "سافكا" وهو يفتح الصرة وأسبغ على صوته مسحة دعابة وتسامح.-لا يمكن

للمرأة أن تأتي خالية الوفاض... وهذه فطائر بطاطا...يا للرخاء!-تنهد "سافكا" محوّل نظره نحوي-هي

وزوجها الوحيدان من بقيت لديهما البطاطا من الشتاء الماضي!

لم أر وجه "أغافيا" في الظلام لكن خيّل إلي من حركة كتفيها ورأسها يأنها لا تحول بنظرها عن وجه "سافكا". لكي لا أكون ثالثهم في هذا اللقاء قررت التزّه ونهضت، لكن في هذه اللحظة أطلق العندليب فجأة من بين

الأحراش نغمتين موسيقيتين منخفضتين، وبعد نصف دقيقة أصدر صوتا عاليا ناعما كأنه يجرب بهذا الشكل صوته وبدأ بالغناء. هبَّ "سافكا" واقفا وبدأ يسترق السمع.

— هذا عندليب البارحة! — قال هو — إصمت! ...

و إنطلق من مكانه وركض نحو الأحراش دون ضجة.

— إتركه و شأنه. — صرّخت في إثره. — دعه!

إندفع "سافكا" غير مبال كأنه يقول: "لا تصرخي وإختفي في الظلام. كان "سافكا" قناصا وصياد سمك ماهر إذا رغب في ذلك لكن مواهبه وقواه كانت تهمد هنا سدى. كان كسولا لكي يتقيد بالعادات أما شغفه بالصيد فكان يكرسه لزوات تافهة. كأن يصطاد العصفير بيديه حتما والسمك بالخرق ويحدث أن يقف قرب النهر ساعات طويلة محاولا بكل قواه إصطياد سمكة صغيرة بصنارة كبيرة. سعلت "أغافيا" بعد أن بقينا وحيدين ومسحت جبينها براحتها عدة مرات ... بدأت تنتشي من تأثير الفودكا.

— كيف حالك يا "أغاشا"? سألتها بعد صمت طويل عندما بات من غير اللباقة متابعة الصمت.

— الحمد لله... لن تُخبر أحد يا سيدي أليس كذلك؟! ... — أضافت فجأة "أغاشا" بصوت خافت.

— كفي عن ذلك، — هداًتها — يالك من جريئة يا "أغاشا"... ماذا لو علم "ياكوف" بذلك؟

— لن يعلم...

— و إذا علم؟! —

— كلا... سأكون في البيت قبله. إنه الآن على السكة وسيعود أدراجه بعد أن يمر قطار البريد ومن هنا يُسمع صوته عندما يمر...

مسحت "أغافيا" جبينها مرة أخرى بيدها وتطلعت إلى المكان الذي قصده "سافكا". كان عندليب يغني. حلّق طائر ما قريبا جدا من الأرض وعندما شاهدنا إرتعش و خفق بجناحيه ومن ثم طار إلى ضفة النهر الأخرى.

سكت عندليب بعد قليل لكن "سافكا" لم يعد. نهضت "أغافيا" وخطت عدة خطوات وجلست مرة أخرى.

— ماذا دهاه؟ — لم تعد تحتل — موعد القطار ليس غدا!! علي المغادرة الآن!.

— "سافكا". — صرخت أنا — "سافكا"!

لم يرد علي حتى الصدى. تحركت "أغافيا" بقلق ونهضت مرة أخرى.

— علي الذهاب. آن الآوان. — قالت هي بصوت مؤثر — سيمر القطار الآن! أنا علي علم بموعد

القطارات!.

لم تخطئ المرأة المسكينة. لم تمض ربع ساعة حتى سُمع ضجيج العجلات من بعيد.

تسمرت نظرات "أغافيا" باتجاه الأحراش وحركت يديها بصبر نافذ.

-أين هو يا إلهي؟- تفوهت ضاحكة بعصية-إلى أين أخذه الشيطان؟. سأذهب، يا سيدي، والله سأذهب! أصبح ضجيج العجلات في هذه الأثناء أكثر وضوحا. كان بالإمكان تمييز وقعها عن همهمة القطار. سُمع صفير القطار الذي اصطكت عجلات قاطراته بمدوء أثناء مروره على الجسر...وبعد دقيقة أخرى خيم الهدوء.

-سأنتظر دقيقة أخرى...-تنهدت "أغافيا" بعد أن جلست بجزم - فليكن، سأنتظر!. أخيرا لاح "سافكا" في الظلمة. خطا حافي القدمين دون ضجة على أرض البستان الرخوة ودندن بلحن ما بصوت خافت.

-يا لسوء الحظ. قل لي، تفضل!-ضحك بسرور- قبل لحظة، كما يقال، يعني، إقتربت من الشجيرات، وقبل لحظة صوبت يدي فوجدته قد سكت! آه، يا خبيتي! إنتظرت حتى يغني مرة أخرى و لكن عبثا... ألقى "سافكا" في حركة خرقاء بجسده على الأرض بالقرب من "أغافيا" و لكي يحافظ على توازنه أمسك خصرها بيديه.

-ما بك عابسة كإن أفعى لسعتك.-سألها "سافكا".

بالرغم من رقة قلبه وصفائه كان "سافكا" يحتقر النساء. كان يعاملهم باستخفاف وعجرفة إلى درجة يهزأ بمشاعرهم تجاه شخصه بالذات. يعلم الله، لعل معاملته للفتيات القرويات هكذا باستخفاف و إزدراء كانت من إحدى أسباب جاذبيته القوية التي لا تقاوم. كان وسيما ذا قوام ممشوق وعيناه تشعان دائما برقة حتى حينما ينظر إلى النساء اللواتي يستخفن بهن، لكن لا يمكن تفسير هذه الجاذبية بالمظهر الخارجي فقط. عدا عن مظهره الخارجي المُسر وطريقته في التعامل، كان لدور "سافكا" المؤثر المعروف للجميع كفاشل تعيس ومبعد بئس عن إلى البساتين، له أثره أيضا لدى النساء.

-هيا حدثي السيد لماذا جئت إلى هنا!-أكمل "سافكا" وهو ما يزال يمسك بخصر "أغافيا"-هيا حدثيه. يا زوجة الرجل!!! ها.ها... ما رأيك "أغاشا"! لنشرب الفودكا مرة أخرى؟!.

نَهَضَتْ وسرت بمحاذاة البستان أشق طريقي بين أحواض الزراعة. كانت تفوح منها رائحة أرض محروثة ورطوبة أعشاب طرية بدأ يُغطيها الندى...من الجهة اليسرى كان ما يزال يتلألأ ضوء أحمر. كان يتلألأ بود وخيل إلي بأنه يضحك...

سمعت ضحكة فرحة. كانت "أغافيا" تضحك.

"ماذا بشأن القطار؟"-تذكرت أنا-"لقد وصل منذ زمن طويل".

عدت إلى الكوخ بعد أن إنتظرت قليلا. جلس "سافكا" طاويا ساقيه تحته على الطريقة التركية دون حراك يدندن بصوت خافت يكاد يسمع بلحن يشبه:- "أوف عليك، أوف عليّ، أنا بحبك و أنت لي". بعد أن ثملت

"أغافيا" من الفودكا وملاطفات "سافكا" الساخرة وإنجباس هدوء الليل، تمددتْ على الأرض بالقرب منه وهي تسند بتشنج وجهها على ركبته. لقد إستسلمت كثيرا لمشاعرها إلى درجة لم تلاحظ عودتي.
- "أغاشا"، وصل القطار منذ وقت طويل. - قلت لها.

- هيا، هيا. - تابع "سافكا" فكرتي هازا برأسه. راق لك وضعية الإستلقاء هنا؟ أنت قليلة الحياء!
إنفصت "أغافيا" ونهضت قليلا على ركبة واحدة... كانت "أغافيا" تتألم. - رفعت رأسها بصعوبة وتطلعت نحوي و ألفت برأسها عليه مرة أخرى.
- حان الوقت منذ زمن طويل. - قلت لها.

تململت "أغافيا" ونهضت على ركبة واحدة... كانت تتوجع... كانت هيئتها تعبر بقدر ما إستطعت رؤيتها من خلال الظلام، عن صراع ما وتردد. عندما كانت تصحو وتمطط بيدنها لكي تنهض وتقف على قدميها، كانت هناك، في لحظة ما، قوة لا تقهر ولا تلين تدفع جسدها كله فتعود لتلقي بنفسها على "سافكا"...
- فليذهب إلى الشيطان! - قالت هي بضحكة غريبة خرجت من صدرها. سمعت في هذه الضحكة عزيمة رعناء وضعف وألم.

مشيت متثاقلا وببطء نحو الأحراش ومن هناك إنحدرت نحو النهر حيث طقوم صنانيرنا منصوبة. كان النهر راكدا. مست واحدة من الورود الملونة الناعمة على سيقان عالية وجنتي بنعومة كالطفل الرضيع الذي يريد أن يفهمك بأنه ليس نائما. لمست جذعا بسبب الملل وسحبته كان طريا ومترهلا - والصيد كان صعبا... وكان من الصعوبة بمكان رؤية الضفة الأخرى والقرية. تلاً في بيت ريفي ضوء سرعان ما خفت. تحسست بيدي المكان على الضفة فعثرت على تجويف كنت قد شاهدته ظهرا فجلست فيه كإنه أريكة. جلست طويلا... شاهدت كيف بدأت النجوم تخفت وتفقد بريقها وانتشرت البرودة كزفرة خفيفة في الهواء وهزّت أوراق الصفصاف التي غطت في نوم عميق...
- "أ-غا-فيا!!!" - سُمع صوت أحد ما خافت من القرية - "أغافيا".!

كان ذلك هو الزوج العائد والقلق يبحث في القرية عن زوجته. وسمعت من البساتين في هذه اللحظة ضحكة ماجنة. كانت الزوجة فاقدة الوعي، ثملة تحاول التعويض عن المآسي التي تنتظرها في الغد بعدة ساعات سعادة إضافية.
إستسلمت للنوم.

عندما إستيقظت كان "سافكا" جالسا بقربي يهزني من كتفي برفق. كان النهر والأحراش وكلتا الضفتان مغسولة، الأشجار والحقول مغمورة بنور الصباح الساطع. تدفقت أشعة الشمس التي أشرقت للتو من خلال جذوع الأشجار الرفيعة.

- تصطادون السمك إذن؟ - ضحك "سافكا" ساخرا - هيا إنهض!
نهضت و تمططت بلذة وبدأ صدري المستيقظ يشتم بشراة الهواء الرطب المعطر.

-هل ذهبت "أغاشا"؟- سألته.

-ها هي.-أشار "سافكا" باتجاه النهر.

إلتفت فشاهدت "أغافيا" رافعة فستانها، شعثناء وإنسدل منديلها من رأسها. كانت تقطع النهر وتجبر قدميها بصعوبة...

-هل تعلم لحم من أكلت!-تتمم "سافكا" مشيراً بعينه إليها-تمشي طاوية ذيلها...النسوة آفة مثل القطط و جبانة مثل الأرانب...لم تذهب الحمقاء البارحة عندما قلنا لها! ستلقى جزائرها و سأنال أيضاً نصيبي...سيقطعونني إربا بسبب النساء مرة أخرى...

وصلت "أغافيا" الضفة الأخرى ومشت في الحقل باتجاه القرية. كانت تخطو في البداية بجراً لكن سرعان ما تغلب عليها القلق والخوف- إلتفتت بهلع و توقفت لتتقط أنفاسها.

-هكذا، شئ مخيف!-ضحك "سافكا" بكآبة وهو ينظر إلى الصفحة الناصعة التي إمتدت على العشب

الندي خلف "أغافيا".-لا ترغب في العودة! يقف زوجها منذ ساعة كاملة ينتظرها...هل تراه؟.

قال "سافكا" الكلمات الأخيرة مبتسماً، أما أنا فإقشعر بدني قليلاً. وقف "ياكوف" على الطريق بجانب

البيت الريفي في طرف القرية مثبتاً نظره على زوجته العائدة. لم يتململ وكان منتصباً كالعالمود. بماذا كان

يفكر وهو يتطلع إليها؟ أية كلمات سيتلفظ بها عندما يلتقي بها؟ وقفت "أغافيا" قليلاً وإلتفتت حولها مرة

أخرى كأنها تنتظر مساعدة منا ومشت. لم أر في حياتي مثل تلك المشية، لا عند السكارى ولا عند الأصحاء.

كانت "أغافيا" تتصور ألماً من نظرات زوجها. كانت تمشي تارة بخط متعرج وتارة تحبط في الأرض في مكانها

مخنية ركبتيها وباسطة يديها، وتارة تتراجع إلى الخلف. عندما قطعت مائة خطوة إلتفت مرة أخرى وجلست.

-لو إنك إختفيت خلف الشجيرات...-قال "سافكا".-قد لا يلحظك زوجك...

-مهما يكن، فهو يعلم من أين تأتي "أغاشا"...لا تذهب النسوة إلى البساتين ليلاً من أجل الكرب-

الجميع يعلم ذلك.

تطلعت في وجه "سافكا". كان شاحباً ومتغضناً ينم على رافة وإشمزاز كما يحدث لدى الناس حين

يشاهدون الحيوانات المعذبة.

-تضحك القطط والدموع للفئران"-...-قالها بالعا ريقه.

هبت "أغافيا" واقفة فجأة، ولوت برأسها وتوجهت بخطوات جريئة نحو زوجها. يبدو إنها إستجمعت قواها

و عقدت العزم.

(*)-نُشرت القصة لأول مرة عام 1886 في مجلة "نوفايا فريميا" (العصر الحديث)، العدد 3607 بتوقيع: أن. تشيخوف.

نهاية فنانه*)

كان الشيخ الجليل والساذج "شيبيتسوف" فارح القامة، مكتنز البدن، إشتهر بقوته البدنية أكثر من مواهبه المسرحية. تشاجر دون رجعة، أثناء المسرحية مع متعهد المسرحيات، وفي ذروة الشجار شعر فجأة إن شئ ما قد توقف في صدره وكان المتعهد "جوكوف" كعادته في نهاية كل شجار وطيس يبدأ بالقهقهة الهستيرية ويغمى عليه، إلا أن "شيبيتسوف" لم ينتظر إغمائه هذه المرة وخرج بسرعة إلى غرفته. أزعجه الشجار وتقطع شئ ما في صدره إلى درجة نسي فيها غسل المكياج عن وجهه وإكتفى بترع اللحية فقط.

عند عودته إلى غرفته صار يخطو من زاوية إلى أخرى ومن ثم جلس على السرير وبدأ يفكر ضاغطا بكفيه على رأسه، وجلس بهذه الوضعية دون حراك والنطق بحرف واحد إلى الساعة الثانية من اليوم التالي، لحظة دخول الممثل الكوميدي "سيغايف" إلى غرفته.

- ماذا بك يا "شوت(1) ايفانوفيتش"، لم تحضر البروفات-إنهال عليه الممثل الكوميدي بأسئلته محاولا التغلب على لهثته وناشرا رائحة النبيذ التي تفوح من فمه في أرجاء الغرفة -أين كنت؟. لم يجب "شيبيتسوف"، وإنما إكتفى بالنظر بعينين معكرتين ومصبوغتين بالمكياج نحو الممثل الكوميدي. -كان عليك أن تغسل وجهك الدميم على الأقل-أكمل "سيغايف". -شئ معيب رؤيتك هكذا! هل ثقلت بالأكل والشراب أم...إنك مريض؟

ظل "شيبيتسوف" صامتا. ورغم كثافة المكياج على وجهه، استطاع الممثل الكوميدي بنظرته الثاقبة رؤية تلك الشحوب الغريبة والتعرق ورجفان الشفاه. كانت قدماه ويداه ترتجفان أيضا وخيل إليه أن جسد الشيخ الساذج الهائل كله متغضنا ومنكمشا. فتش الممثل الكوميدي الغرفة بعينه لكنه لم يعثر على مشروبات كحولية وزجاجات فارغة أو أية أوان مشبوهة.

- أتعلم يا "ميشوتكا"(2) إنك حقا مريض! سحتك غريبة!
- إستمّر "شيبيتسوف" بالصمت محدقا في الأرض بكآبة.
- هل أصبت بترلة برد!-أكمل "سيغايف" ممسكا بيدي الشيخ-يا لها من أيد ساخنة! ما الذي يؤلمك؟
- أر...أريد الذهاب إلى بيتي.-تتم "شيبيتسوف".
- أأست في بيتك الآن؟
- كلا... إلى (فيازما)(3)...
- يا للعجب، إلى أين أراد!! لن تصل إلى "فيازمتك" في ثلاث سنوات. ماذا؟ إشتقت إلى الوالد والوالدة؟ يقينا إنهم توفوا منذ زمن بعيد ولن تعثر أبدا على مثوهم...
- هناك.. مو...موطني...

- لا بأس.. لا بأس... لا داع للمناحة، أخي دعك من جنون المشاعر وأجلّها إلى وقت آخر... تعافى وغدا عليك لعب دور "ميتكا" في "الأمير سيريريبي: (4)... لا أحد سواك. فلتشرب شئ ما ساخن وزيت الخروج أيضا. هل لديك نقود لشراء الخروج؟ أو إنتظر، سأذهب وأشتري بنفسي.
- بحث الممثل الكوميدي في جيوبه ووجد خمسة كوييكات وهروول إلى الصيدلية وعاد بعد ربع ساعة.
- خذ، إشرب!- قالها مقربا الدواء من فم الشيخ الجليل. -إشرب من الزجاجاة مباشرة... دفعة واحدة! هكذا... خذ الآن شيئا من القرنفل لتقضي على رائحة الدواء الكريهة هذه.
- جلس الممثل الكوميدي بعض الوقت عند المريض ومن ثم قبله برقة وخرج. وفي المساء زاره "jeune -premier" براما غلينسكي (5). كان الممثل الموهوب ينتعل جزمه بنفسجية ويرتدي قفازا في يده اليسرى ويدخن سيجارا و تفوح منه رائحة الهليوتروب (6).
- على أية حال، كان رغم كل ذلك يُذكرنا بالسائح الذي تُرك وحيدا في بلدة لا توجد فيه حمامات ولا نسوة يغسلن الثياب ولا خياطين...
- سمعت إنك مريض؟- توجه إلى "شيبيتسوف" بعد أن إستدار مرتكزا على كعب جزمته-ماذا بك؟ بالله عليك ما خطبك؟...
- ظل "شيبيتسوف" صامتا ودون حراك.
- لماذا أنت صامت؟ هل لديك دوخة؟.. إذن إسكت، لن أضايقك، إسكت...
- إبتعد "براما-غلينسكي" (7) هكذا ينادونه في المسرح أما في جواز السفر فهو "غوسكوف" نحو النافذة ووضع يديه في جيبيه وبدأ النظر إلى الخارج فإنكشفت أمامه أرض مقفرة هائلة يحيط بها سور رمادي إمتدت بمحاذاته غابة ضخمة من أعشاب العام الفائت، كبيرة الأوراق ومن خلف الأرض المقفرة تراءى بلونه الأسود، مصنع أحدا ما ، مهمل بنوافذه المغلقة بإحكام يحوم بالقرب من مداخله غراب شارد. بدأ يغزو هذه الصورة الخامدة غسق الليل.
- أريد الذهاب إلى البيت!-سمع jeune-premier.
- ما معنى إلى البيت؟
- إلى (فيازما)...إلى موطني...
- إلى (فيازما)، يا أخي، ألف وخمسمائة فرستا (8)... "تنفس براما-غلينسكي" الصعداء وهو يدق زجاج النافذة-ولماذا تريد الذهاب إلى (فيازما)؟...
- أريد أن أموت هناك...
- ما هذا الهراء...أموت...ما إن مرضت أول مرة في حياتك حتى بدأت تتصور إن الموت قد حل...لا...يا أخي، إن جاموس مثلك لن يطيح به أي وباء كان، ستعيش حتى مائة سنة...ما الذي يؤملك؟..

- لا يؤلمني شيء... لكن أنا... أشعر...

- أنت لا تشعر بشيء . كل ما لديك هو وفرة العافية وتعربد القوة في دماغك وما عليك الآن إلا أن تنتفض جيدا وتشرب بحيث ينقلب كل شيء في جسدك رأسا على عقب . إن السكر يُنعش بشكل ممتاز... أتذكر كيف "غرّدت" في مدينة (روستوف) (9)؟ يا إلهي، يخيفني مجرد تذكر ذلك!، لم نقو أنا و"ساشا" إلا بصعوبة على حمل برميل النبيذ الذي شربته وحدك ومن ثم طلبت شراب "الروم" أيضا... شربت إلى درجة بدأت "تصيد الشياطين بالكيس"؟! وانتزعت عمود قناديل الشارع من أساسه، أتذكر؟ وفوق كل ذلك ذهبت حينئذ لضرب اليونانيين...

تأمل وجه "شبيتسوف" قليلا تحت تأثير هذه الذكريات اللطيفة وإتقدت عيناه وقال:

- أتذكر كيف ضربت المتعهد "سافويكين"؟ - غمغم رافعا رأسه - نعم! ماذا أقول لك! لقد ضربت في حياتي ثلاثة وثلاثين متعهدا، أما الإخوة أقل شأنا فلا أستطيع إحصائهم. أية متعهدين ضربت! أولئك الذين لا يسمحون حتى للريح أن تلمسهم! وضربت إثنان من الكتاب المشهورين ورسام واحد!

- لماذا تبكي؟

- قتلت بقبضتي جوادا في مدينة (خيرسون) (10). أما في مدينة "تاغاناروغ" (11) فهاجمني الزعران ذات مرة ليلا، عددهم خمسة عشرة ونزعت عن رؤوسهم القبعات وظلوا يلاحقوني راجين، قائلين: "يا عم، هات القبعة"! هكذا كان الحال.

- لماذا تبكي يا أهبيل؟

- أما الآن أشعر... . بالنهاية. أريد السفر إلى (فيازما)!

حل صمت قصير وفجأة هب "شبيتسوف" واقفا وخطف قبعته. كان منظره متكدرا.

- إلى اللقاء! سأسافر إلى (فيازما)! قال ذلك مترنحا.

- لديك نقود للطريق؟

- هممم!... سأذهب مشيا على الأقدام!

- جُننت حقا...

نظر كل واحد منهم إلى الآخر ويبدو إنه لمعت في خاطريهما نفس الفكرة حول الحقول الشاسعة والغابات اللا متناهية والمستنقعات.

- كلا، يبدو أنك جُننت! قرر jeune-premier - إسمع يا أخي... عليك أولا أن تستلقي ومن ثم تشرب الكونياك مع الشاي وزيت الخروع طبعاً. إنتظر من أين لنا بالكونياك؟

فكر "براما-غلينسكي" وقرر الذهاب إلى التاجرة "تسيترينيكوفا" ليحاول الإستدانة منها:

سترأف بي المرأة على الأغلب وستعطيني بالدين! ذهب jeune-premier وعاد بعد نصف ساعة

حاملًا زجاجة الكونياك ووزيت الخروج أيضا. كان "شبيتسوف" جالسا على السرير كالسابق دون حراك، صامتا، محمدا بالأرض. شرب زيت الخروج الذي قدمه رفيقه بشكل آلي دون مشاركة وعيه ومن ثم جلس بشكل آلي خلف الطاولة وشرب الشاي مع الكونياك ، وعب كل ما في الزجاجة وسمح لرفيقه بمساعدته على الإستلقاء في الفراش. قام jeune-premier بتغطيته باللحاف والمعطف ونصحته بالتعرق وخرج.

حل الليل. كان قد شرب كثيرا من الكونياك ولكن "شبيتسوف" لم ينم. كان ممددا تحت اللحاف دون حراك، محمدا بالسقف المظلم ومن ثم حول بنظره، بعد رؤية القمر، من السقف إلى الكوكب وظل هكذا مستلقيا دون حركة حتى الصباح. وفي الصباح، حوالي الساعة التاسعة، عرج عليه المتعهد "جوكوف".

—ما الذي خطر ببالك، أيها الملاك لكي تمرض؟— صاح مقطبا أنفه—آه و آه! هل يمكن لبنيتك أن تمرض؟ شيء معيب. معيب ! أما أنا فقد أصابني الهلع ! وفكرت: هل كان لحديثنا شأن فيما حصل لك؟... أرجو يا روجي أن لا أكون سبب مرضك؟ علما إنك أيضا أهنتني... مهما يكن، لا يمكن للأصدقاء أن يتعاشوا دون ذلك. لقد شتمتني هناك و... وإستخدمت قبضتك، أما أنا فأحبك! والله أحبك! أحترمك وأحبك! هات، فسّر لي ، أيها الملاك، لماذا أحبك هكذا؟ أنت لست أخي ومن أقربائي ولست زوجتي وحين علمت بمرضك ، أحسست يائي طُعت بسكين.

تحدث "جوكوف" طويلا عن حبه ومن ثم بدأ بتقبيله وفي النهاية غمرته المشاعر إلى درجة بدأ فيها بالقهقهة المسترية ورغب في أن يُغمى عليه لكنه تمالك نفسه، لأنه، على الأغلب، لم يكن في بيته أو في المسرح وقام بتأجيل الإغماء إلى وقت آخر مناسب أكثر وخرج.

و بعده بقليل جاء الممثل التراجيدي "آداباشيف"، وهو شخصية تافهة، أعمش ، يتحدث من أنفه... تفحص شبيتسوف طويلا وفكر مليا وفجأة إكتشف ما يلي:

—أتعلم يا "ميفا"؟—تحدث ناطقا حرف الفاء بدلا من الشين وأسبغ على وجهه تعبير غامض —
أتعلم؟ عليك شرب زيت الخروج!!

ظل شبيتسوف صامتا، وصمت بعد حين عندما سكب الممثل التراجيدي في فمه الزيت الكريه. وبعد "آداباشيف" بساعتين جاء إلى غرفته حلاق المسرح "يفلامبي"، أو كما يسميه الممثلون لسبب نجهله—"ريغوليتو"(12).— تمعن هو أيضا في وجه "شبيتسوف" طويلا مثل الممثل التراجيدي وتنفس الصعداء كالقطار وبدأ ببطء في فك عقدة جعبته التي إحتوت على عشرين كأسا وعدة زجاجات. —لو إنك أرسلت في طلبي ، كنت سأعاجلك بالكاسات—قالها برقة كاشفا عن صدر "شبيتسوف"—سهل جدا إهمال المرض.

و من ثم طبّط بكفه على صدر الشيخ الجليل العريض وغطاه كله بكاسات الهواء مصاصة الدماء.

-نعم-قال وهو يربط أدواته المدفنة بدم "شيبيتسوف" بعد إنتهاء العملية-لو إنك أرسلت في طلي لوجدتني قادمًا...فيما يخص النقود فلا داع إلى القلق...على سبيل الشفقة...من أين لك بالنقود إذا كان ذلك الجني (ويقصد المتعهد) لا يريد الدفع؟ والآن إسمح لي، إشرب هذه القطرات. إنها لذيدة! والآن إسمح لي، إشرب الزيت. خروج أصلي! هكذا! بالعافية! والآن إلى اللقاء...

أخذ "ريغوليتو" جعبته وخرج مغتبطا لأنه ساعد زميله.
وفي صباح اليوم التالي زاره الممثل الكوميدي "سيغايف" فوجده في حالة يرثى لها. كان ممددا، ملتحمفا معطفه، يتنفس بصعوبة ويحول عينيه الزائغتين بإتجاه السقف ويدعك بيده المرتجفة اللحاف.
-إلى (فيازما)!-همس بعد أن شاهد الممثل الكوميدي-إلى (فيازما)!
-أن هذا، لم يعد يعجبني يا أخي! بسط الممثل الكوميدي يديه- هذا...هذا...هذا بالضبط، يا أخي غير مقبول!! إعذرني لكن ... حتى ...، أخي، هذه حماقة...
-عليّ الذهاب إلى (فيازما)! أقسم بالله إلى (فيازما)!

-لم...لم أتوقع منك!...تتم الممثل الكوميدي المرتبك تماما.-لا يُصدق! في سبيل ماذا تنلوي! آه...آه...آه..يا للعار! مارء مثلك بطول المنارة ويكي. هل يجوز أن يكي الممثل؟
-لا زوجة ولا أولاد.-تتم "شيبيتسوف"-كان عليّ أن أعيش في(فيازما) بدلا من أن أصبح ممثلا! ضاعت حياتي يا "سيميون"!آه، لو ذهبت إلى (فيازما)!
-آه...آه...آه..يا للعار!هذا غباء...على الأصح دناءة!

هدأ"سيغايف"، بعد أن سيطر على مشاعره وبدأ بمواساة"شيبيتسوف" وتلفيق قصة يزعم فيها نية رفاقه في المسرح إرساله إلى (القرم)13 وإلى ما هنالك من قصص، إلا إنه لم يستمع وإستمر في غمغمته بشأن (فيازما)...وفي النهاية أصيب الممثل الكوميدي باليأس وبدلا من أن يواسي المريض بدأ أيضا بالحديث عن (فيازما).

-مدينة جميلة!-تابع منسجما بالحديث-مدينة ممتازة يا أخي! إشتهرت بكعك العسل. كعك عسل نموذجي، لكن-بصراحة-إنه...مقرف. بعد تناوله ينتابني لمدة إسبوع كامل!!!...لكن التجار هناك أمر آخر! من أفضل التجار. إذا إستضافك أحدهم، فإنه يقوم بذلك على أكمل وجه! كان الممثل الكوميدي يتحدث أما"شيبيتسوف" فظل صامتا، يستمع ويهز رأسه بإستحسان.
و في المساء قضى نخبه.

(*) نُشرت القصة لأول مرة عام 1886 في جريدة "بطرسبورغ"، العدد 40 باسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

- 1- "شوت": وتعني المهرج (المترجم).
- 2- "ميشوتكا": اسم التصغير من "ميشا"، و"ميشا" اسم التحيب من "ميخائيل" (المترجم).
- 3- (فيازما): مدينة روسية قديمة في مقاطعة (سمولينك) تبعد عن (موسكو) حوالي 200 كم (المترجم).
- 4- "لعب دور "ميكا" في "الأمير سيريريني" - يدور الحديث هنا حول قيام "س. دوبروف" وإسمه الحقيقي "أي. س. بوبوف" بمسرحة قصة "أ. ك. تولستوي". عُرضت للمرة الأولى على مسرح "مالي" (الصغير) موسم 1868\69. و"ميكا" - إحدى شخصيات المسرحية و هو رجل عملاق، دمث الخلق وقوي (تشيخوف).
- 5- jeune-premier (بالفرنسية) وتعني العشيق الأول أو بطل المسرحية (تشيخوف).
- 6- "هليوتروب": نوع من الأعشاب المشعرة يستخدم في تحضير العطور (المترجم).
- 7- براما: واحد من ثلاثة آلهة في الديانة البراهمانية والهندوسية، إله يرمز إلى الكون والروح. أما غلينسكي فهو إسم عائلة أمراء روس بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (المترجم).
- 8- الفرستا: وحدة قياس المسافات والفرستا تعادل 1060 متر (المترجم).
- 9- 10-11: مدن روسية وأوكرانية (المترجم).
- 12- "ريغوليتو": ويقصد به "ريغوليتو" الأحذب، المهرج في قصر "الكونت تشيربانو" في أوبرا "ريغوليتو" المأخوذة من قصة لفكتور هيجو (المترجم).
- 13- (القرم): مقاطعة على البحر الأسود تتبع أوكرانيا حاليا، فيها مصحات ومنتجعات (المترجم).

القراءة

جلس متعهد حفلات مسرحنا "غالاميدوف" في إحدى المرات في مكتب مديرنا "إيفان بتروفيتش سيميالاتوف" وكان يحدثه عن التمثيل وعن جمال الممثلات.

- لا أوافقك الرأي - قال "إيفان بتروفيتش" وهو يوقع ورقة اعتماد. - "صوفيا يورييفنا" قوية، وموهبة أصيلة! جذابة ورشيقة... إنها رائعة!...

أراد "إيفان بتروفيتش" أن يتابع حديثه لكنه، من فرط إعجابه لم يتمكن من نطق كلمة أخرى وإبتسم إبتسامة عريضة ومعسولة إلى درجة جعلت متعهد المسرحيات، الذي كان يحرق به، يشعر في فمه بمذاق حلو.

- يعجبني بما... أل - ل - ل -... الهيجان وخفقان صدرها الشاب حين تقرأ الحوار... كأنها تلهث! في هذه اللحظة، أخبرها، أنا مستعد... لعمل أي شيء من أجلها!

- إسمح لي، يا صاحب السعادة بالتوقيع على رسالة إدارة شرطة (خيرسون) بشأن... رفع "سيميالاتوف" وجهه المبتسم فرأى الموظف "ميرديايف". وقف "ميرديايف" أمامه محملاً فيه وقرب الورقة للتوقيع. قطب "سيميالاتوف" جبينه. لقد أنقطع الحبل - كما يقال - في منتصف عمق البئر وفي أمتع لحظة.

- كان بإمكانك القدوم في وقت آخر. - قال هو - ألا تراني أتحدث! كان بإمكانك المجيء في وقت آخر - أضاف. - ألا تراني أتحدث! - وملتفتاً لـ "غالاميدوف" - قلت لي، لا وجود لنماذج "غوغول" بيننا!.. إليك أحدهم... ألا يُشبههم؟! قدر، أكاماه مهترئة، عابس.. أشعث الشعر دائماً... إنظر كيف يكتب! وحده الله يعلم ما هذا!، أخطاء لغوية... كتابة لا معنى لها... كأنه إسكافي! إنظر!

- إن - نعم.. - تتمم "غالاميدوف" وهو يتفحص الورقة. - حقاً... أغلب الظن يا سيد "ميرديايف"، نادراً ما تقرأ.

- لا يجوز هذا يا عزيزي! - أكمل المدير. - إني أخجل بسببكم! كان عليك أن تقرأ الكتب على الأقل... - القراءة تعني الكثير جداً! حين تقرأ تكتشف فوراً كيف تتبدل مداركك. بإمكانك الحصول على الكتب من أي مكان كان. لدي، على سبيل المثال كتب أستطيع جلبها بكل سرور، غداً إن أردت!

- أشكره يا عزيزي. - قال "سيميالاتوف".

أحنى "ميرديايف" قامته بإرتباك وحرك شفتيه وخرج.

وفي اليوم التالي زارنا "غالاميدوف" وجلب معه حزمة من الكتب. وهنا، ومنذ هذه اللحظة تبدأ الحكاية!! الأجيال القادمة لن تغفر أبداً لـ "سيميالاتوف" تصرفه الأرعن هذا! بإمكاننا أن نغفر لشباب مراهق هكذا

تصرف ولكن لا يجوز أبداً فعل هذا إذا كان هذا الشخص موظف من الدرجة الرابعة وذو خبرة عظيمة. حين وصل متعهد المسرحيات دُعي "ميرديايف" إلى مكتب المدير.

—خذ وإقرأ يا عزيزي!—قال "سيمبيلاتوف" وهو يناوله كتاباً. —إقرأ يا انتباه!

أخذ ميرديايف الكتاب بيد مرتعشة وخرج من المكتب.

كان شاحب الوجه ومصفر اللون. عيناه الزائغتين كانتا شاردين وبدتا كإفهما تتلمسان العون من الأشياء الجامدة من حوله. أخذنا منه الكتاب وبدأنا في تصفحه بحذر.

كان إسم الكتاب "الكونت دي مونتو كريستو".

—لا تجوز مخالفة المدير!—قال محاسبنا العجوز "بروخور سيميونييتش بوديلغا" —متنهداً. —جرب بشكل ما... إبدل قصارى جهدك.. إقرأ شيئاً فشيئاً ومن ثم إتكلم على الله. قد ينسى، حينها يمكنك الكف عن ذلك.

لاتخف... المهم ألا تحاول أن تفهم.. إقرأ ولا تحاول سبر أغوار ما كُتب من أفكار..

لف "ميرديايف" الكتاب بالورق وجلس يكتب، لكنه لم يفلح في كتابة شيء هذه المرة. كانت يدها ترتجفان وعيناه الحولوتين زائغتين: عين مسلطة إلى السقف والأخرى إلى المحبرة. وفي اليوم التالي قدم إلى العمل داعم العينين.

—بدأت بالقراءة أربع مرات—قال هو—ولكن لم أفهم شيئاً... أناس أجنب فحسب...

بعد خمسة أيام توقف "سيمبيلاتوف" وهو يمشي بين الطاولات أمام "ميرديايف" وسأله:

—ها، ماذا؟ قرأت الكتاب؟

—قرأته يا صاحب السعادة.

—عن ماذا يتحدث الكتاب يا عزيزي؟ هيا إحك لي!.

رفع "ميرديايف" رأسه إلى الأعلى وحرك شففيه:

—نسيت يا صاحب السعادة..—قال بعد دقيقة.

—هذا يعني إنك لم تقرأ الكتاب أو.. أ.. قرأت دون إنتباه! بشكل آ-ل-ي! لا يجوز هذا! إقرأ مرة

أخرى! على العموم، أيها السادة، أنصحكم: على الجميع أن يقرأ! "بارامونوف"، هيا، خذ كتاباً!

"بودخودتسيف"! هيا أنت أيضاً يا عزيزي. "سميرنوف" وأنت أيضاً... أيها السادة أرجوكم.

ذهب الجميع وأخذ كل منهم كتاباً. الوحيد من تجراً وأعرب عن إحتجاجة كان "بوديلغا". إذ رفع يديه وهزّ برأسه وقال:

—أما أنا فإعذرني سعادتكم... الأفضل أن أسرح من عملي... لا أدري ما تجره لنا هذه "المنتقادات" والمؤلفات.

بسببها، ينعت حفيدي أمه التي أرضعته بالحمقاء ويشرب الحليب طوال أيام الصوم. إعذرني!.

—أنك لا تفقه شيئاً،—قال "سيمبيلاتوف" الذي كان يغض الطرف عن فظاظات العجوز عادة.

لكن "سيمبيلاتوف" كان مخطئاً: العجوز كان يفهم كل شيء.

بعد إسبوع جئنا ثمار تلك القراءة. "بودخودتسيف"، الذي قرأ الجلد الثاني من "اليهودي الخالد" شرع يصف "بوديلغا" بالمنافق وبدأ "سميرنوف" يرتاد مكان عمله في حالة سكر. ولم تؤثر القراءة في أحد مثلما أثرت بـ"ميرديايف". إذ صار ينحف ويتضمّر وأصبح يتعاطى الكحول.

— "بروخور سيميونيتش"؛ —توسل هو إلى "بوديلغا"—سأصلي من أجلك دهرًا! تدخل لدى سعادته ليعفيني... أنا لا أستطيع القراءة. أقرأ ليلاً ونهاراً. لا أكل ولا نوم... أنهكت زوجتي! رغم قراءتي بصوت مسموع، لكنني يشهد الله، لا أفهم شيئاً! إحسن إليّ بالله عليك!!

تجرأ "بوديلغا" عدة مرات في التوجه بالحديث إلى "سيميبالاتوف" ولكن الأخير كان لا يعيره إنتباهاً وحين يتجول في المؤسسة برفقة "غالاميدوف" كان يلوم الجميع على جهلهم.

مرّ شهران على هذه الحالة وإنتهت الحكاية بشكل فظيع للغاية!.

في إحدى المرات قدم "ميرديايف" إلى العمل وبدلاً من أن يجلس إلى طاولته جثا على ركبتيه في وسط الغرفة وقال باكياً:

—سامحوني يا أخوتي في الإيمان بسبب تحضيري لأوراق مزيفة!.

ومن ثم دخل إلى مكتب المدير وركع أمام "سيميبالاتوف" على ركبتيه وقال:

—سامحني سعادتك: البارحة رميت طفلي في البئر!.

ودق جبينه في الأرض وإستغرق في البكاء...

—ما معنى هذا؟! —تعجب "سيميبالاتوف".

—معنى هذا يا صاحب السعادة،—قال "بوديلغا" وهو يتقدم إلى المدير والدموع تذرّف من عينيه،—إنه فقد عقله! لقد أختلط عليه عقله ووعيه! هذا هو مفعول كتب صاحبكم "غالاميدوف". الرب يرى كل شيء يا صاحب السعادة. وإن لم تعجبك كلماتي فإسمح لي بالإستقالة. الأفضل الموت جوعاً من أرى مثل هذا الأمر في آخر أيام حياتي.

شحب لون "سيميبالاتوف" وخطا من زاوية إلى أخرى.

—لا لـ"غالاميدوف"!،—قال بصوت مهموس،—أما أنتم أيها السادة فإطمئنوا.. أنا أشعر الآن بخطئي. أشكرك أيها العجوز!.

منذ ذلك اليوم لم يحدث شيء في مؤسستنا. إستعاد ميرديايف عافيته ولكن جزئياً. وإلى الآن يرتعش ويشيح بوجهه عندما يرى كتاباً.

(*)—نُشرت القصة لأول مرة عام 1884 في مجلة "أسكولكي" (شظايا) الساخرة، العدد 12 بعنوان: "حديث الطائر العجوز" باسمه المستعار: "أ".

تشيخونتي".

متعهد مسرحيات تحت الأريكة

(حادثة خلف الكواليس)(*)

حان وقت تبديل الملابس. هرولت "كلاوديا ماتفييفنا دولسكايا- كاوتشوكوفا" وهي ممثلة شابة وجذابة، تقدس الفن، إلى غرفة الزينة وبدأت بخلع ثياب العجورية لترتدي، بطرفة عين، بدلة فرسان الخيالة. وحرصاً منها على الحفاظ على ثنايا البدلة دون تجعدات ولكي تستقر على جسدها بشكل جيد، قررت الممثلة الموهوبة نزع ملابسها حتى آخر قطعة وإرتداء البدلة على جسد حواء. وبدأت بتسوية بنطال الخيالة بعد أن نزع ملابسها وإرتعشت من البرد الخفيف فسمعت تنهدات أحد ما. إتسعت حدقتا عينيها وبدأت تسترق السمع. تنهد أحد ما مرة أخرى كإنه يتمتم:

- ذنوبنا خطيرة... آه.ه.ه.

تفحصت الممثلة المرتبكة الغرفة ولكنها لم تعثر على شيء مشبوه، فقررت، بداع التطفل، إلقاء نظرة تحت الأريكة، قطعة الموييليا الوحيدة في الغرفة.

- يا إلهي؟ تحت تحت الأريكة جثة شخص ممشوقة.

- من هناك؟-صرخت من الرعب وإبتعدت عن الأريكة، مغطية جسدها بستر الخيالة.

- هذا أنا... أنا... - سُمعت همسات متهدجة من تحت الأريكة. - لا تخافي... هذا أنا... هس!

لم يكن للصعوبة بمكان أن تتعرف الممثلة في خن اللوشوشة الشبيه بأزيز المقلاة على صوت "إينديكوف" متعهد المسرحيات.

- هذا أنت؟!- سألت مستاءة ومحمرة كوردرة ألفاونيا(1). - كيف... كيف تجرات؟ معنى هذا، أيها العجوز الدنيء، إنك كنت مستلقيا هنا طوال الوقت؟ ياللمصيبة!

- عزيزتي... قرة عيني! همس "إينديكوف"، ماذا صلعة رأسه من تحت الأريكة- لا تغضبي، غاليتي! إذبحيني، إهرسيني كما تُهرس الأفعى ولكن دون ضجيج! لم أر شيئاً، ولا أرى ولا أريد رؤية شيء.

عبثاً تحاولين تغطية جسدك، هامتي، جميلتي التي لا توصف! إستمعي إلى عجوز إحدى قدميه في القبر! لست هنا عبثاً وإنما في سبيل النفاذ بجلدي. سأقتل! إنظري كيف قبّ شعري! لقد وصل "بريندين"، زوج حبيبتي "غلاشينكا" من (موسكو) ويتنقل الآن في المسرح ليقتلني. يا للهول! عدا موضوع "غلاشينكا" فأنا مدان للنذل بمبلغ خمسة آلاف!

- ما شأنى بذلك؟ إغرب عن وجهي فوراً وإلا...إلا...لا أدري ماذا سأفعل بك أيها النذل!
- هس، يا روحي هس. أرجوك راكعاً، زاحفاً! أين أختفي منه إذا خرجت من هنا؟ إنه سيجدني في أي مكان ولن يتجرأ الدخول إلى هنا فقط! أتوسل إليك! أرجوك! رأيته قبل ساعتين! كنت أقف، في أثناء الفصل الأول خلف الكواليس، فوجدته قادماً من الصالة نحو خشبه المسرح.
- معنى ذلك إنك كنت تتسكع هنا طوال العرض؟-دُعرت الممثلة-...ورأيت كل شيء؟
أجهش المتعهد بالبكاء:
- أرتعد! أرتجف! عزيزتي أرتجف! سيقتلني اللعين! لقد أطلق النار علي مرة في (نيجني)(2)...كتبت الصحف عن ذلك!
- آه...هذا لم يعد يطاق، إخرج. حان وقت إرتداء الملابس والصعود إلى الخشبة! إغرب عن وجهي وإلا سأ...سأصرخ وأبكي بصوت عال...وأرميك بالمصباح!
- هس! أنت أملتي...وقارب نحائي، خمسون روبلا علاوة على راتبك، فقط لا تطرديني! خمسون! غطت الممثلة نفسها بملابس كثيرة وركضت باتجاه الباب لكي تصرخ.
زحف "إينديكوف" خلفها على ركبتيه وأمسك برجلها من مكان أعلى من الكاحل...
- خمسة و سبعون روبلا، لا تطرديني أرجوك! -همس وهو يلهث...وسأضيف إليهم نصف مكافأة!
- أنت تكذب!
- فليعاقبني الرب ويلعني ، أقسم لك! نصف مكافأة وخمسة وسبعون روبلا علاوة!
- ترددت "دولسكايا-كاوتشوكوفا" قليلاً وابتعدت عن الباب.
- يقينا إنك تكذب- قالت بصوت باك.
- ليمحي الرب أثري ويحرمني من ملكوت السماء! هل أنا نذل إلى هذه الدرجة حقاً؟
- حسناً. لا تنس...-وافقت الممثلة-هيا، إختف تحت الأريكة.
- تنفس "إينديكوف" الصعداء وزحف تحت الأريكة بصخب أما "دولسكايا-كاوتشوكوفا" فإرتدت ملابسها بعجالة. كانت خجلة وكان فظيلاً مجرد التفكير بأن رجل غريب في غرفة الزينة يستلقي تحت الأريكة، لكن شعورها بأنّها ضحّت من أجل قداسة الفن، شجّعها إلى درجة توقفت فيه عن السباب وعندما خلعت بعد ذلك رداء الخيالة قالت بعطف:
- ستلوث ثيابك عزيزي "كوزما الكسييتش"!إنني أرمي تحت الأريكة ما هب ودب!
- إنتهت عملية تبديل الملابس ودُعيّت الممثلة إلى الخشبة إحدى عشرة مرة وقُدمت لها باقة من الزهور كتب عليها"ابق معنا". وبعد عاصفة التصفيق إلتقت بـ"إينديكوف" خلف الكواليس وهي عائدة إلى غرفة الزينة. كانت بدلة متعهد المسرحيات ملطخة ومجعدة و شعره أشعث، يتهلل فرحاً ويفرك يديه بإرتياح.

- هي-هي...تصوري يا عزيزتي!-تحدث مقتربا منها- إضحكي على العجوز الأهل! تصوري، ذلك لم يكن "بريندين" أبدا! هي-هي...ليأخذه الشيطان، لحيته الحمراء أفقدتني صوابي... "بريندين" أيضا ذي لحية حمراء...أنا العجوز الأهل لم أتعرف إليه...عبثا أزعجتك أيتها الجميلة ...
- إسمع. تذكر ما وعدتني به-قالت " دولسكيا-كاوتشو كوف".
- أتذكر، أتذكر عزيزتي. لكن...يا عزيزتي، ذلك لم يكن "بريندين"! لقد إشرطنا بخصوص "بريندين" فقط . لماذا إذن عليّ الإلتزام بالشرط إذا كان ذلك ليس "بريندين". لو كان "بريندين"، كان الأمر سيختلف عندئذ، لكنك لمست بنفسك كيف إختلطت عليّ الأمور. إعتقدت إن أحد الغرباء هو "بريندين"!
- يا للسفالة! إستاءت الممثلة- سفالة! حقارة!.
- لو كان ذلك "بريندين"، طبعاً، كان لك الحق الكامل في مساءلتي بشأن الوعد الذي قطعتة، لكن لا أحد يعلم من هو. قد يكون إسكافي ما أو، إعذريني، خياط-كيف أدفع عنه؟ أنا رجل شريف، عزيزتي...أفهم ...
- ..وإستمر و هو يبتعد، يومئ بيديه ويقول:
- لو كان ذلك "بريندين"، طبعاً، أنا مجبر على الدفع، إلا إن ذلك كان شخصا ما غريب، يعلم الله وحده من يكون! رجل أبرص وليس "بريندين" أبداً.

(*)-نُشرت القصة لأول مرة عام 1885، في مجلة "أسكولكي" (شطايا)، العدد 51 باسمه المستعار: "أ. تشيخونتي"

1 -"ألفاونيا":نوع من الورود حمراء ،فاقة اللون(المترجم).

2-(نيجني): ويقصد بها مدينة "نيجني نوفغورود" الروسية(المترجم).

"آنيوتا" (*)

كان "ستييان كلوتشكوف"، طالب السنة الثالثة في كلية الطب، يخطو في غرفة من غرف (لشبونة)⁽¹⁾ المفروشة الرخيصة جدا، من ركن إلى آخر وهو يستظهر بإجتهاد عن ظهر قلب، المواد الدراسية وقد جفّ حلقه وسال العرق على جبينه نتيجة هذا العمل المضني والمتواصل.

جلست صديقته "آنيوتا" على كرسي بلا مسند قرب نافذة، غطت جوانبها زخارف جليدية. كانت "آنيوتا" فتاة صغيرة الحجم، ضعيفة البنية، ذات شعر أسود، تبلغ من العمر الخامسة والعشرين، شاحبة جدا وذات عيين رماديتين وادعتين. كانت محبة الظهر وهي تحيط بخيوط حمراء، ياقة قميص رجالي، وكان عملها هذا يتطلب الإستعجال... دقت ساعة الممر بجدة مشيرة إلى الثانية ظهرا ولم تُنظف الغرفة بعد. كانت البطانيات مدعوكاة والمخدات والكتب والفساتين مبعثرة وطست كبير قدر ملئ ببقايا محلول الصابون تعوم فيه أعقاب سجائر، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك قمامة على الأرض. كل هذه الصورة، بدت كأن كل شيء متكدس في كومة واحدة، مبعثر ومدعوك بشكل مقصود....

—الرئة اليمنى تتألف من ثلاثة أجزاء...—إستظهر عن غيب "كلوتشكوف"—الحواجز! الجزء العلوي من الحجاب الحاجز يتألف من 4-5 أضلاع وعلى السطح الجانبي لغاية الضلع الرابع... وخلفها لغاية spina scapulae...⁽²⁾

رفع "كلوتشكوف" عينيه نحو السقف ليتصور جاهدا ما قرأه للتو وعندما عجز عن التصور الواضح، بدأ يتحسس أضلاعه العلوية دون رفع سترته:

—هذه الأضلاع تُشبه مفاتيح البيانو—قال الطالب— ولكي لا نتوه في الحساب علينا، بلا شك، أن نتدرب عليها. سنضطر إلى دراستها على هيكل عظمي لشخص ما حي... حسنا، هيا يا "آنيوتا"، عليّ أن أستدل. تركت "آنيوتا" الحياطة وخلعت سترتها وإستقامت وجلس "كلوتشكوف" أمامها وبدأ، متجهما، في عد أضلاعها.

—ممم... لا يمكن تحسس الضلع الأول... إنه خلف عظم الترقوة... وهذا سيكون الضلع الثاني... حسنا... وهذا الضلع الثالث... أما هذا فهو الضلع الرابع... مممم... حسنا... ما لك تنكمشين؟—أصابعك باردة.

—هيا... لن تموتي. لا تتمللي... إذن هذا هو الضلع الثالث وهذا الرابع... نحيلة أنت لكن يصعب تحسس أضلاعك. هذا الثاني وهذا الثالث... كلا، سأضيع دون أن أتصورها بوضوح... سأضطر إلى رسمها. أين قطعة الفحم؟.

تناول "كلوتشكوف" الفحم ورسم على صدر "آنيوتا" عدة خطوط متوازية تتطابق مع الأضلاع.

-رائع! كل شيء واضح... هيا، أما الآن بالإمكان نقرها. إهضي!.

فحضت أنيوتا ورفعت رأسها. إنشغل كلوتشكوف بالنقر إلى درجة لم يلحظ فيها كيف إزرقّت شفّتا وأنف وأصابع "آنيوتا" من البرد. كانت "آنيوتا" ترتجف من البرد ولكنها كانت تخاف أن يلحظ الطبيب رجفانها ويتوقف عن الرسم بالفحم والنقر ومن ثم، لعله يفشل في الامتحان.

-أما الآن فكل شيء واضح-قال "كلوتشكوف" متوقفا عن النقر-إجلسي هكذا ولا تمسحي الفحم. أما أنا فسأعيد قليلا ما قرأته لبعض الوقت.

بدأ الطبيب، مرة أخرى، يخطو في الغرفة ويستظهر عن ظهر قلب، أما "آنيوتا" المنكمشة من البرد، المغطاة بالوشم وبشعرها الأسود المنسدل على صدرها، فبقيت جالسة تفكر... كانت دائما، صامتة وتحدث قليلا. كانت تفكر و تفكر...

منذ أن بدأت تتسكع بالغرف المفروشة قبل ست أو خمسة أعوام، تعرفت الفتاة على خمسة أشخاص مثل "كلوتشكوف". أنهى أولئك الدراسة وشقوا طريقهم في الحياة ونسوها بطبيعة الحال، كونهم أناس شرفاء. يعيش أحدهم في باريس. إثنان منهم أطباء والرابع رسام والخامس يقال بأنه أصبح بروفيسورا!

و"كلوتشكوف" هو السادس... سيُنهى هذا أيضا قريبا دراسته ويشق طريقه في الحياة. المستقبل، بلا شك رائع وعلى الأغلب، "كلوتشكوف" سيصبح أيضا رجلا مهما. لكن الحاضر سيء: لقد نفذ لدى "كلوتشكوف" التبغ والشاي وبقيت أربع قطع من السكر. عليها الإنتهاء من الخياطة بأقصى سرعة، وتسليمها إلى الزبونة ومن ثم شراء الشاي والتبغ من مبلغ الأربع روبلات التي ستحصل عليها لقاء ذلك.

-هل أستطيع الدخول؟-سُمع صوت خلف الباب.

ألقت "آنيوتا" منديل الصوف على كتفها بسرعة ودخل الرسام "فيتيسوف".

-لي عندك رجاء-بدأ الرسام متوجها إلى "كلوتشكوف" ناظرا إليه بوحشية من وراء شعره المنسدل على جبهته-إسد لي معروفا، أعزني لمدة ساعتين فتاتك الرائعة! تصور، أرسم لوحة لكن يبدو الأمر صعبا دون موديل حي للرسم.

-آه، بكل سرور!-وافق "كلوتشكوف"-إذهبي، يا "آنيوتا".

-ما الذي فقدته هناك!-غمغمت "آنيوتا" بصوت منخفض.

-كفاك! إن الرجل يرجوني من أجل الفن وليس من أجل شيء ما تافه. كيف لا نساعدته إذا كنت قادرة على ذلك؟

بدأت "آنيوتا" يارتداء ملابسها.

-ما الذي ترسمه؟-سأل "كلوتشكوف".

-جنون. موضوع رائع لكن لا نتائج! و أنا مضطر إلى رسم موديلات مختلفة. رسمت البارحة إحداهن قدماها زرقاوتان. سألتها لماذا؟ أجابت بأن الجوارب لونها. هل ما زلت تستظهر عن غيب! رجل سعيد، و صبور.

-الطب، علم لا يمكن تخطيه دون إستظهار.

-مم. إعذرني يا "كلوتشكوف"، لكنك تعيش كالخنازير، يا للفظاعة، يعلم الله وحده كيف تعيش!
-ما قصدك؟ لا يمكن العيش بطريقة أخرى... أستلم من والدي شهريا، إثني عشرة فقط ويا مكني العيش بهذه النقود بشكل جيد.

-هكذا إذن... -قالها الفنان مقطبا بتقزز- لكن، مهما يكن، بالإمكان العيش بشكل أفضل... يجب أن يكون الرجل المتطور محبا للجمال. أليس كذلك؟ أما ما أراه، وحده الله يعلم ماذا؟ الفراش غير مرتب، أوساخ وقمامة... عصيدة البارحة ما زالت في الصحن... تفوا!
-هذا صحيح- قالها الطبيب مرتبكا- لكن لم يكن بمقدور "آنيوتا" تنظيف الغرفة اليوم. إنها مشغولة طوال الوقت.

عندما خرج الفنان و "آنيوتا"، إستلقى "كلوتشكوف" على الأريكة وصار يستظهر وإستغرق بعدها في النوم دون إرادته وإستيقظ بعد ساعة. بدأ يفكر بكآبة ماسكا رأسه بكفيه. تذكر كلمات الرسام حول ضرورة أن يحب الرجل المتطور الجمال وبدا له وضعه مقرفا وشنيعا. كان بإمكانه، بعينه البصيرة، رؤية مستقبله بدقة، عندما يبدأ في إستقبال المرضى في عيادته ويشرب الشاي في غرفة طعام واسعة برفقة زوجته، المرأة السوية-أما الآن، فإن منظر الطست المليء بالقمامة حيث تسبح أعقاب السجائر، مقيت إلى حد فظيع. وخيل إليه إن "آنيوتا" أيضا قبيحة، قدرة وتافهة... فقرر أن يتخلى عنها فوراً بأية طريقة كانت.
عندما عادت من الرسام ونزعت معطفها، فحض من الأريكة وقال لها بجدية:

-إسمعي يا عزيزتي... إجلسي و إسمعي. علينا أن نفرق! وياختصار لا أرغب في العيش معك.
عادت "آنيوتا" من غرفة الرسام متعبة ومرهقة وأصبح وجهها، نتيجة الوقوف المتواصل في وضعية واحدة، مدببا وأصبح جسدها ضعيفا وشفثاها ترتجفان.

-تتفقين معي، إننا، سواء الآن أم بعد فترة سنفرق- قالها الطبيب- أنت فتاة جميلة ولطيفة ولست غبية وستفهمين...

إرتدت "آنيوتا" معطفها مرة أخرى وصّرت بصمت ما كانت تحيكه في ورقة ولت الخيوط والإبر: أما اللفافة التي وجدتها على النافذة وتحتوي على أربع قطع من السكر فقامت بوضعها على الطاولة بجانب الكتب.

-هذا السكر لك... -قالت بهدوء وأشاحت بوجهها لتخفي دموعها .

-لماذا تبكين؟- سأل "كلوتشكوف".

وبدأ يخطو في الغرفة بحيرة وقال:
- أنت غريبة حقا... تعرفين جيدا إنه من الضروري أن نفترق، لن نبقي سوية دهرًا.
كانت قد جمعت صرقتها وإستدارت نحوه لتودعه، فأشفق عليها.
"فلتبقي، تعيش هنا إسبوع آخر؟- فكر "كلوتشكوف"-فلتبقي وتعيش هنا وبعد إسبوع سأطلب منها
المغادرة." وناداهما بصراصة متضايقا من ضعف إرادته:
-لماذا تقفين؟ إذا أردت الخروج فإخرجي وإذا رغبت في البقاء، فإبقى، إبقى!
خلعت "آنيوتا" معطفها بصمت وهدوء ومن ثم تمخطت بهدوء أيضا وتنهدت وتوجهت، دون صخب،
إلى مكانها الدائم، نحو الكرسي من دون مسند، بالقرب من النافذة. إلتقط الطالب الكتاب وبدأ مرة أخرى
يخطو في الغرفة من زاوية إلى أخرى.
-تتألف الرئة اليمنى من ثلاثة أجزاء...-إستظهر عن ظهر قلب-الجزء العلوي في الحجاب الحاجز يصل
إلى 4-5 أضلاع...

أما في الممر فكان أحدهم يصرخ بمليء صوته:
-"غريغوري"، هات السماور!!.

(*)-نُشرت القصة لأول مرة عام 1886، في مجلة "أسكولكي" (شطايا)، العدد 8، بإسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

1-إسم فندق في بطرسبورغ(المترجم).

2-...spina scapulae: عظم اللوح باللاتينية.

الصيدلانية

كانت مدينة (ب) الصغيرة المؤلفة من إثنين أو ثلاثة أزقة متعرجة، تغط في سبات عميق وتخيم السكينة على الجو المتسمر. كان يُسمع فقط من مكان ما بعيد، ربما خارج المدينة، كلب ينبع بنبرة مبحوحة وضعيفة. قريبا سينبلج الفجر.

كان الجميع غارقون في النوم. وحدها زوجة الصيدلي "تشيرنومورديك" الشابة، صاحب صيدلية المدينة، كانت مستيقظة. لقد إستلقت في الفراش ثلاث مرات ولكن النوم يحافىها دون أن تعرف السبب. كانت تجلس بالقرب من النافذة المفتوحة، ترتدي القميص فقط وتنظر نحو الشارع. كانت ضجرة ومزعجة وحزينة... حزينة إلى درجة تستدعي البكاء ولكن، دون أن تعرف السبب أيضا. كان حجرا جثم على صدرها و إنعقد حلقها من اللوعة... وخلف الصيدلية، على بعد عدة خطوات كان "تشيرنومورديك" يشخر بلذة منكمشا ووجهه ياتجاه الجدار. إنغرز برغوث في قصبة أنفه ولكنه لم يشعر به ومع ذلك كان يبتسم لأنه كان يحلم بأن كافة أهل المدينة يسعلون ويشتررون من عنده، دون انقطاع، قطرات الملك الداغركي⁽¹⁾ ولم يكن بمقدور أحد إيقافه الآن، لا عن طريق الحقن ولا بالمدافع ولا حتى عن طريق الملاحظة.

تقع الصيدلية على طرف المدينة تقريبا ولذلك كان بإمكان الصيدلانية رؤية الحقول من بعيد... كانت ترى كيف بدأ اللون الأبيض يغمر بالتدريج طرف السماء الشرقي وكيف بدأ يغزوه الإحمرار كأن حريقا هائلا شب فيه. وأطل القمر، أحمر اللون، على نحو غير منتظر، كبيرا، كاملا من خلف غابة أشجار بعيدة (عموما، كلما أطل القمر من خلف غابة الأشجار، يكون دائما، لسبب ما، مرتبكا للغاية).

وفجأة سمعت، وسط سكون الليل خطوات أحد ما وصلصلة مهاميز وسمعت أصواتا أيضا.

"هؤلاء ضباط قادمون من مركز الشرطة يتوجهون نحو المعسكر" - طنت الصيدلانية.

وبعد قليل ظهر شخصان في بزات ضباط رسمية بيضاء: شكل الأول كبير ومكتنز البدن والثاني أصغر سنا وأنحف... كانا يجران أقدامهما بكسل ويمشيان بمحاذاة السور ويتحدثان عن شيء ما بصوت عال. وعندما صارا بالقرب من الصيدلية بدأ الشخصان يسيران ببطء أكثر وينظران باتجاه النوافذ.

-رائحة صيدلية... -قال الرفيع- إنما فعلا صيدلية! آه... تذكرت... كنت هنا الإيسوع الفاتت وإشتريت زيت الخروع. وهنا أيضا صيدلي ذو وجه تعيس وفك مثل فك الحمار. يا له من فك يا عزيزي، كأن شمشون الجبار أوسعه ضربا.

-نعم- قال البدين بصوت جهوري- الصيدلية نائمة. هنا، يا "أوبتيوسوف"، صيدلانية رائعة.

-رأيتها. أعجبتني جدا... قل لي يا دكتور، يا ترى هل بمقدورها أن تحب ذلك الفك الشبيه بفك الحمار؟

هل هي قادرة بالفعل؟.

- كلا. على الأغلب لا تحبه- تنهد الدكتور كأنه يشفق على الصيدلي.- وزوجته أيضا نائمة خلف تلك النافذة! أليس كذلك يا "أوبتيوسوف"، ها؟ مستلقية ومكشوفة بسبب الحر... وفمها نصف مغلق... وقدمها متدليتان من السرير... أعتقد أن هذا الصيدلي الأبله لا يفقه في هذا الموضوع شيئا... لعله لا يفرق بين المرأة وزجاجة حمض الكربوليك!.

- إسمع يا دكتور- قال الضابط بعد أن توقف- لنعرج على الصيدلية ونشتري شيئا ما! قد نشاهد الصيدلانية.

- ليلا؟! ادعك من الترهات!!.

- ماذا؟ من واجبهم العمل ليلا يا عزيزي. لندخل!.

- ربما...

سمعت الصيدلانية المختفية وراء الستار صوت الجرس. تطلعت نحو زوجها الذي كان يشخر بلذة ويتسم كالسابق.

لاح ظلان خلف الباب الزجاجي... زادت الصيدلانية من شعلة النار في المصباح وسارعت إلى فتح الباب، فلم تعد ضجرة ولا كنيبة واختفت رغبتها في البكاء. قلبها فقط كان يخفق بقوة. يدخل الدكتور البدين و"أوبتيوسوف" النحيف والآن بإمكانهما تفحصهما بدقة. كان الدكتور ذا كرش كبير، أسمر اللون، ذي لحية وثقيل الحركة وتُخشخش بزته عند أقل حركة ويتصبب العرق من وجهه. أما الضابط فشكله وردي، من دون شارب يشبه المرأة ومرن كالسوط الإنكليزي.

- ما طلبكما؟

- إعطنا... أ-أ-أ أقراص النعناع بخمسة عشر كوبيكا!.

تناولت الصيدلانية متمهلة العلبة من الرف وبدأت تزن الأقراص وكان الزبونان يحدقان في ظهرها دون أن يرف لهما جفن وكان الدكتور يزر بعينه كالقط الشعاع أما الملازم فكان جديا جدا.

- لأول مرة أرى امرأة تعمل في الصيدلية- قال الدكتور.

- لا غرابة في ذلك... ردت الصيدلانية وهي تنظر بطرف عينيها في وجه "أوبتيوسوف" الوردي- لا أحد يساعد زوجي، وأنا أساعده دائما.

- هكذا إذن... لديكم صيدلية ظريفة! وعدد لا يحصى من مختلف اللعب! ألا تخافين من العمل بين هذه السموم! برررر!.

صّرت الصيدلانية الكيس وناولته للدكتور. أعطاه "أوبتيوسوف" خمسة عشر كوبيكا وخيم الصمت نصف دقيقة... تطلع الرجلان بعضهما إلى البعض وخطيا خطوة باتجاه الباب ومن ثم تبادلوا النظرات مرة أخرى:

- إعطني مسحوق الصودا بمبلغ عشرة كوبيكات! قال الدكتور.

تحركت الصيدلانية مرة أخرى بكسل وتثاقل ومدت يدها نحو الرفوف.

—هل لديكم هنا في الصيدلية شيء ما يشبه... غمغم "أوبتيوسوف" محركا أصابعه، —شيء ما هكذا ، تدرين، مقوي أو شيء فيه مياه مُنشطة... مياه "زيلتر" (2) مثلاً! هل لديكم مياه "زيلتر" المعدنية؟

—نعم—أجابت الصيدلانية.

—برافو! أنت ساحرة ولست امرأة. إحضري لنا ثلاث زجاجات!

غلّقت الصيدلانية مسحوق الصودا بعجالة واختفت في العتمة خلف الباب .

—فاكهة!!! قال الدكتور غامزا. — لن تلق مثل هذا الأناناس حتى في جزيرة "مادييرا" يا "أوبتيوسوف". ها؟

ما رأيك؟ لكن ... أسمع الشخير؟ تفضل! هذا هو السيد الصيدلاني بنفسه يغط في النوم.

تعود الصيدلانية بعد دقيقة وتضع خمس زجاجات على المنضدة. كانت قبل قليل في السرداب ولذلك كانت محمرة و مضطربة.

—هس... مهلا،—قال "أوبتيوسوف" عندما أسقطت مفتاح الزجاجات وهي تترع السدادة—لا داع للضجة وإلا ستوقظين زوجك.

—ماذا سيحصل لو أيقظته؟

—انه ينام نوما هنيئا ... ويراك في الحلم... بصحتك!

—ناهيك عن إن موضوع الأزواج أمر ممل والأفضل لو إنهم ناموا باستمرار—قال الدكتور بصوت جهوري بعد أن شرب مياه "زيلتر"—آه لو إن لدينا نبيذا أحمر نشربه مع هذه المياه!

—دعك من هذه الترهات—ضحكت الصيدلانية.

—سيكون رائعا! وأسفاه! لماذا لا يبيعون المشروبات الروحية في الصيدليات! على أية حال... يجب أن تبيعوا النبيذ في الصيدلية كدواء. هل لديكم *vinum gallium rubrum*؟ (3)

—نعم.

—ألم أقل لك!. إعطنا النبيذ فليأخذه الشيطان. إجلبه من فضلك.

—كم تريدان؟

—Quantum satis (4)! إسكبي لنا في البداية أونصة واحدة في الماء ومن ثم سنرى... أليس كذلك يا أوبتيوسوف، ها؟ في البداية مع الماء ومن ثم *perse*... (5)

يجلس الدكتور و"أوبتيوسوف" بالقرب من منضدة الصيدلية ويخلعان قبعتيهما ويبدأن بشرب النبيذ الأحمر.

—هذا النبيذ، علينا أن نعتف، كرية جدا. *Vinum Plochissiumum* (6) لكن بحضور أَل... أَل... أَل... يبدو سلسيلا. أنت فاتنة يا سيدي. أقبل يداك في خيالي!

—سأدفع غالبا من أجل أن أفعل ذلك فعلا—قال "أوبتيوسوف"—أقسم لك أنا مستعد لدفع حياتي ثمنا لذلك!!

-دعك من هذا الهراء...-قالت السيدة"تشيرنومورديك" وإحمرت وأسبغت على وجهها مسحة من الجدا!.
-ياللك من امرأة لعبوب-يضحك الدكتور بصوت خافت محذفا فيها ومقطبا بجبائة.-أصابتنا سهام عينيك.
أهنتك ، لقد إنتصرت ونحن المندحرون!

تنظر الصيدلانية إلى وجهيهما الموردين وتستمع إلى ثرثرتهما ومن ثم تنتعش هي أيضا. آه ، إنتقل المرح إليها!
وتتدخل في الحديث وتضحك وتتدلّع إلى حد رضخت فيه لإلحاح زبونها الطويل وشربت معهما أونصتين من
النبيذ الأحمر.

-عليكم أيها الضباط القدوم من معسكراتكم إلى المدينة على الدوام-قالت الصيدلانية-والا، كما ترون،
الجو هنا كتيب. أموت من الضجر.

-طبعاً-إرتاع الدكتور-مثل هذا الأناثاس...إعجوبة الطبيعة و..في هذا المكان المقفر!كان "غريويديف"
رائعا عندما قال: "إلى مكان مقفر! إلى (ساراتوف!)". لكن حان وقت المغادرة، لنذهب. أنا سعيد للغاية
بمعرفتكم. كم المبلغ الواجب دفعه؟.

رفعت الصيدلانية عينيها نحو السقف وحركت شفتيها طويلا.

-عشرون روبلا وثمانية وأربعين كوبيكا!

يُخرج "أوبتيوسوف" من جيبه محفظة سميكة و يعد النقود ومن ثم يدفع.

-زوجك ينام نوما هنيئا. يرى الأحلام...-تتم وهو يضغط على يد الصيدلانية مودعا.

-لا أحب سماع الترهات....

-أية ترهات؟ هذه ليست ترهات أبدا...قال "شكسبير" ذاته: "طوبى لمن كان شابا منذ ريعان الشباب!".

-إترك يدي!

وأخيرا، بعد أحاديث طويلة يقبل الزبونان يد الصيدلانية ويخرجان مترددين كأنهما نسيا شيئا ما. أما هي
فهرعت إلى غرفة النوم وجلست بالقرب من تلك النافذة. رأت الدكتور والملازم يخرجان من الصيدلية
ويبتعدان بكسل عشرون خطوة ومن ثم يتوقفان ويتهامسان عن شيء ما. عن ماذا؟ يخفق قلبها ويخفق شئ ما
في صدغيها. لماذا؟-لا تعلم هي أيضا الجواب...يخفق قلبها بقوة كأن الشخصان يهماسان هناك ويقرران
مصيرها.

بعد مرور خمس دقائق ينفصل الدكتور عن "أوبتيوسوف" ويتابع سيره أما "أوبتيوسوف" فيعود. يخطو

بالقرب من الصيدلية مرة أخرى...يقف تارة بالقرب من الباب وتارة يبتعد...وأخيرا يرن الجرس بهدوء.

-ماذا؟ من هناك؟-سمعت الصيدلانية فجأة صوت زوجها-هناك من يرن الجرس: ألا تسمعين!!-قال

الصيدلي بحدة-ما هذه الضجة!!

وقف يرتدي ثيابه ويترنح شبه نائم، يتخبط ويقرقع بجذائه ويذهب إلى الصيدلية.

-ماذا..تريد؟ سأل الصيدلي.

-إعطني بخمسة عشر كوبيكا رقائق النعناع.

توجه الصيدلي نحو الرفوف وهو يتنفس بصعوبة بشكل متواصل ويتشأب ويغفو ماشيا مصطدما بالمنصة ويتناول العلبة...

بعد دقيقتين رأت الصيدلانية كيف خرج "أوبتيوسوف" من الصيدلية .وبعد أن خطا عدة خطوات رمى رقائق النعناع على الطريق المغبرة وظهر الدكتور من الزاوية...والتقى الرجلان وبدأ يؤمان بأيديهما وإختفيا في ضباب الصباح.

-كم أنا سيئة الحظ!-قالت الصيدلانية وهي تنظر شزرا نحو زوجها الذي خلع ملابسه بسرعة لكي يستلقي مرة أخرى للنوم.-كم أنا تعيسة!-كررت هي وذرفت فجأة دموعها-لا أحد، لا أحد يعلم ذلك...-نسيت خمسة عشر كوبيكا على الطاولة-غمغم الصيدلي مغطيا نفسه باللحاف-خبئهم من فضلك في الدرج.

و غط في النوم فورا.

(*)-نُشرت القصة لأول مرة عام 1886، في مجلة "أسكولكي" (شظايا) الساخرة، العدد 25، باسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

1-"قطرات الملك الدائمركي":خليفة دواني مؤلف من ملح الشادر واليانسون وغيره لمعالجة السعال(المترجم).

2-"مياه زيلتر":مياه معدنية مشهورة من مدينة "زيلتر"-مقاطعة "غيسن-ناساو" في "بروسيا الألمانية"(المترجم).

3-كلمات لاتينية وتعني: نبيذ فرنسي أحمر(دار النشر).

4-كلمات لاتينية وتعني:على قدر الطلب(دار النشر).

5-باللاتينية وتعني:نقي أو صافي (دار النشر).

6-باللاتينية وتعني:نبيذ سيئ (دار النشر).

من دون وظيفة*)

جلس "بيريبولكين" المرشح في العلوم القانونية في غرفته بالفندق وكتب ما يلي:
.. عمي العزيز "إيفان نيكولايفيتش"...! فليأخذك الشيطان أنت ونصائحك العملية ورسائل التوصية التي
زودتني بها! أفضل ألف مرة وأشرف لي وأكثر إنسانية البقاء دون عمل وعقد الآمال على مستقبل ضبابي من
أن أُلزم في الخوض في الدنئات الكريهة التي تدفعني إليها برسائلك ونصائحك. وأشعر بالغثيان إلى حد لا
يطاق كإنني تسممت بالسّمك. غثيان دماغي شنيع لا يمكن التخلص منه لا عن طريق الفودكا ولا النوم ولا
عن طريق المناجاة الروحية. تعلم يا عمي، بالرغم من أنك رجل مسن إلا أنك بئيمة حقيقية! لماذا لم تحذرنِي
من إنني سأضطر إلى خوض هذه المعاناة البغيضة؟ عيب!.

سأصور لك بالتسلسل كافة مصائبي. إقرأ وأتب نفسك!:

قبل كل شيء، توجهت بخطاب التوصية الذي كتبته إلى "بابكوف". أدركته في مكانه في إدارة هيئة (ن)
للسكك الحديدية. كان هذا العجوز الصغير الأصيل تماما ذو وجه أصفر رمادي وحليق وفم معوج. كانت
شفته العليا تنظر نحو اليمين والسفلى نحو اليسار. كان يجلس ويقرأ جريدة على طاولة منفردة.
كانت تجلس من حوله نساء، كما تجلس الآلهة حول "أبوللو" (1) في قمة "بارناس" (2)، على مقاعد عالية
يحملن كتباً سمكية ويرتدين ثياباً زاهية وأساور كبيرة وفي أيديهن مراوح يدوية. كيف تتمكن هؤلاء النسوة
من التوفيق بين الشياكة في المظهر وراتب النساء المتواضع؟! من الصعب فهم هذا. إما إنهم يعملون هنا مضيفة
للوقت، هكذا على مزاجهم بتوصية من الآباء والأعمام وإما إن لدى الحاسبة هنا صندوق خاص للعاطلين.
وعلمت فيما بعد إنهم لا يعملون أبداً وإن واجبا تم تلقى على أكتاف موظفين صامتين من خارج الملاك، الذين
يتقاضون 10 - 15 روبلا شهرياً. سلمت رسالتك لـ "بابكوف" ومن دون أن يدعوني للجلوس، رفع نظارته
ببطء وفتح المغلف ببطء أكثر وبدأ بالقراءة.

— "عمك يطلب لك وظيفة— قال وهو يحك صلته— لا توجد لدينا شواغر ولن تكون في المستقبل القريب،
لكن على أية حال سأسعى من أجل عمك... سأحدث بذلك مع مدير هيئتنا، قد نجد شيء ما".
كنت سأطير من الفرح وكنت سأتحفه بسيل من كلمات العرفان لو لا إنه، يا أخي، أسمعني فجأة هذه
العبارة:

— "لكن أيها الشاب لو إن الوظيفة كانت لعمك شخصياً كنت سأعفيه من الدفع وبما إنهما لك فذلك... أنا
واثق من أنك... سـ... ستكافئني كما يجب... هل فهمتني؟".

لقد نهتني بأن الوظيفة لن تعطى مجاناً وإن علي أن أدفع، لكنك لم تنطق بحرف واحد عن إن هذا البيع
والشراء سيتم بشكل علني دون خجل أمام الناس... والنساء! آه يا عمي يا عمي! إن الكلمة الأخيرة التي
نطق بها "بابكوف" باغتتني وأوشكت فيها على الموت من الغثيان وخجلت كإنني أنا الذي أستلم الرشوة. لقد

إحمر وجهي وتمت بترهات وتراجعت نحو المخرج وعيون عشرين امرأة مسلطة نحوي، ولحقت بي إحداهن غائرة الخدين ووجه عابس وهمست في أذني وقالت بأنه يمكن الحصول على وظيفة من دون "بابكوف".
"إعطني خمس روبلات سأدلك على" ساخار ميدوفيتش". مع إنه غير موظف لكن بإمكانه العثور على وظائف ولا يطلب كثيرا لقاء ذلك: نصف راتب السنة الأولى فقط!".

كان علي أن اسخر وأستهزئ لكني شكرتها مرتبكا ونزلت الدرج كالدجاجة المنتوفة. بعد "بابكوف" توجهت إلى "شماكوفيتش". كان هذا السمين المنتفخ ذو وجه أحمر وبشوش وعينان زيتيتان صغيرتان. كانت عيناه الصغيرتان مفرطتان بالحلاوة إلى حد يخيل إليك يانها مصبوغتين بزيت الخروع. عندما علم يانك عمي فرح للغاية إلى حد بدأ يصهل بلذة. ترك أشغاله وباشر في سقي بالشاي. رجل لطيف! كان يحدق في وجهي طيلة الوقت ويفتش عن نقاط التشابه بيننا. تذكرك ودموعه تنهمر من عينيه وعندما ذكرته بهدف زيارتي ربت على كتفي وقال:

"سنمل، بالتأكيد من الحديث عن الموضوع. العمل ليس عصفورا يفر من أيدينا. أين تتناولون طعام الغداء؟ بما إن لا فرق لديكم فلنذهب إلى مطعم "بالكين"! وستحدث هناك".

ارفق لك مع خطابي ورقة حساب المطعم. لقد أكل وشرب "شماكوفيتش" بمبلغ 76 روبلا. إتضح إن صاحبك يحب الأكل جدا. أنا الذي دفعت المبلغ بالطبع. ومن ثم جرّني من مطعم "بالكين" إلى المسرح وأنا الذي إشتري التذاكر. ماذا بعد؟ بعد المسرح عرض علي صاحبك اللئيم التتره خارج المدينة لكني رفضت ذلك لأن نقودي كانت على وشك النفاذ. وعند الوداع حملني "شماكوفيتش" تحياته إليك لأبلغك بأنه لا يستطيع إيجاد وظيفة لي إلا بعد خمسة أشهر.

"لن أجد لك وظيفة عن قصد!" - قال مازحا وهو يربت على بطني بعطف. - ومن ثم لماذا تصرون أنتم الجامعيون على العمل في شركتنا؟ بإمكانكم، والله، العمل في هيئة حكومية!"

- "أعلم بوجود وظائف حكومية من دون أن تخبرني بذلك و لكن أين هي هذه الوظائف؟".
ذهبت بخطابك الثالث إلى عرابك "خالاتوف" في إدارة سكك حديد (جيفوديورو-خامسكي). وهنا حدث أمر فظيع وديء يفوق أمر "بابكوف" و "شماكوفيتش" معا. أكرر: فليأخذك الشيطان! أشعر بالغثيان إلى حد مقيت وأنت المذنب في ذلك... لم أتشرف برؤية صاحبك "خالاتوف"! إستقبلني شخص آخر اسمه "أودي كولونوف". كان نحيفا كالوتر وذو وجه أرقط وملامح رجل منافق. عندما علم يانني أبحث عن وظيفة دعاني للجلوس وقرأ لي محاضرة كاملة عن الصعوبات التي تحدث الآن للحصول على وظيفة. وبعد المحاضرة وعدني بأنه سيبلغني بالأمر وسيسعى من أجل ذلك وسيحدث بشأني وإلخ... تذكرت نصائحك حول إعطاء النقود في كل الأماكن المتاحة. حين وجدت يان الرجل المنافق مستعد لتقبل الرشوة دسست في قبضته النقود وأنا أودعه... هزت يده السمينية أصابعي وبانت أسنان المنافق وإنهالت علي الوعود مرة أخرى... لكن

"أودي كولونوف" تطلع من حوله فوجد أناس غرباء من خلفه كان بإمكانهم ملاحظة المصافحة. إرتبك المنافق وتمتم:

— "أوعدك بوظيفة لكن... لا أتقبل الشكر... كلا.. كلا! أعيدها إليك! كلا.. كلا! إنك تسئ إلي...".
و من ثم أرخى قبضته ورد لي النقود ولكنه رد لي ورقة من فئة الثلاث روبلات بدلاً من الورقة فئة الخمسة والعشرين روبلا التي دسستها له! يا لها من خدعة؟ يخيل إلي إنه يجب أن يكون لدى هؤلاء الشياطين نظام معقد من اللوالب والخيوط في الأكمة وإلا لا أفهم كيف تحولت ورقة الخمسة والعشرين إلى ثلاث روبلات تافهة.

بدا لي صاحب الخطاب الرابع "غريزودوبوف" إلى حد ما نقيًا وشريفًا.
كان ما يزال شابًا وسيما وأنيقًا ذي طلعة بهية. إستقبلني بشيء من الكسل والتردد ولكن بلطف. علمت من الحديث إليه بأنه أنهى دراسته الجامعية وإنه أيضا عانى وقتئذ من أجل لقمة العيش مثل السمكة التي تصارع الجليد. لقد تعاطف كثيرا معي سيما وإن حلمه الأول هو التعرف إلى الموظفين المثقفين... لقد زرته ثلاث مرات ولم يخبرني في المرات الثلاث بشيء معين. كان يغمغم ويتلوى ويتفادى الإجابات المباشرة كأنه يخجل أو إنه غير حاسم... لقد وعدتك بأن لا أكون رومانسيا. لقد أكدت لي إن كافة المحتالين، عموما، لهم طلعة بهية وهيئة فرسان متعجرفين... قد يكون ذلك صحيحا ولكن جرب أن تميز المحتالين عن الشرفاء. ستحتار أشد الحيرة... لقد زرته اليوم "غريزودوبوف" للمرة الرابعة... كان يتلوى ويغمغم كالسابق ولم يقل لي شيئا محددا... وأوشكت على الانفجار... لقد مسني الشيطان فتذكرت قسمي لك يا بني سأعطي الرشوة للجميع دون إستثناء. وكأن أحدهم هزني من مرفقي... قررت الجازفة وتقديم الرشوة مثل الذي يريد الغوص في ماء بارد أو القفز من مرتفع..

— آه. فليكن ما يكون!— قررت ذلك— بالإمكان إختبار ذلك مرة أخرى في حياتي.
لقد قررت الجازفة ليس من أجل الوظيفة فحسب وإنما من أجل أحاسيس جديدة ومعرفة و لو مرة واحدة في حياتي تأثير "العرفان" على الناس الشرفاء. لكن "أحاسيسي" ذهبت إلى الشيطان. لقد قمت بذلك من دون حرفة وبتصنع. لقد سحبت من جيبى ورقة نقدية وإنتهزت فرصة أن يشيح "غريزودوبوف" بوجهه عني ووضعتها على الطاولة وأنا محمر الوجه.. ومن حسن حظي وضع "غريزودوبوف" بعض الكتب على الطاولة وغطى تلك الورقة النقدية.. فشلت في ذلك.. لم يرى "غريزودوبوف" الورقة... لقد إختفت بين المستندات أو ربما يسرقها الخدم فيما بعد... وإذا رآها سيغضب... هكذا يا عمي... لقد ضاعت النقود ويؤنني ضميري! أما أنت فما زلت مع نصائحك العملية اللعينة! لقد أفسدتني... سأنتهي من كتابة الرسالة لأن أحد ما يرن الجرس... سأذهب وأفتح الباب...

إستلمت الآن رسالة من "غريزودوبوف" يقول فيها إنه يوجد شاغر في إدارة رسوم البضائع براتب قدره 60 روبلا شهريا. هذا يعني بأنه وجد العملة الورقية!...

(*) تُنشرت القصة لأول مرة عام 1885، في جريدة "بترسبورغ"، العدد 317، باسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

- 1- "أبوللو": حسب الأساطير اليونانية هو ابن زيفس والآلهة لاتونا وهو إله أشعة الشمس والحكمة والأدب والفن ويُصور على شكل فتى يحمل قوساً أو قيثارة. (المترجم).
- 2- "بارناس": حسب الأساطير اليونانية هو جبل مقدس يتواجد فيه "أبوللو" وآلهة الإبداع وهو على حد زعمهم مركز العالم. (المترجم).

عارف الجميل(*)

-خذ ثلاثمائة روبل!-قال "إيفان بتروفيتش" وهو يعطي سكرتيره وقريبه الجنب "ميشا بوبوف" رزمة من أوراق الإعتماد- فليكن، خذ...لم أرغب في إعطائك، لكن...ما العمل؟ خذ...للمرة الأخيرة...إشكر زوجتي. لولاها لما أعطيتك...لقد توسلت إلي...

أخذ "ميشا" النقود غامزا بعينه. عجز عن النطق بكلمات العرفان وإحمرت وإغرورقت عيناه بالدموع. كان سيأخذ "إيفان بتروفيتش" بالأحضان، لكن...إحتضان رب العمل أمر غير لائق!!
-إشكر زوجتي-قال "إيفان بتروفيتش" مرة أخرى-لقد توسلت إلي...لقد أشفقت على وجهك الباكي...إشكرها هي.

تراجع "ميشا" إلى الخلف وخرج من الغرفة وذهب ليقدم الشكر إلى قريبته الجنب. كانت زوجة "إيفان بتروفيتش" امرأة شابة وشقراء جميلة تجلس في غرفتها على أريكة صغيرة وتقرأ رواية. وقف "ميشا" أمامها وقال:

-لا ادري كيف أشكرك!

إبتسمت بود ورمت الكتاب ومن ثم أشارت بلطف إلى مكان بالقرب منها وجلس "ميشا".
-كيف أشكرك؟ كيف؟ وبماذا؟ علميني يا "ماريا سيميونوفنا"! لقد أسديت لي أكثر من جميل! إذ إنني أستطيع بهذه النقود الإحتفال بعرس زواجي من حبيتي وعزيزتي "كاتيا".

و بدأت الدموع تنهمر على خد "ميشا" وتحسرج صوته.

-آه، أشكرك!

إنحنى وقبّل يد "ماريا سيميونوفنا" الصغيرة البضة.

-يالك من امرأة بارة وياله من رجل بار زوجك "إيفان بتروفيتش"! ياله من رجل بار ولطيف! إنه رجل صالح. عليك أن تشكري الرب لأنه جمعك بهذا الزوج! عزيزتي، احبيه، أتوسل إليك، احبيه!
إنحنى "ميشا" وقبّل كلتا يداها مرة واحدة وذرفت دموعه على خده الآخر وصغرت إحدى عينيه.
-إنه عجوز وديميم لكن ياله من طيب القلب. لن تجدي قلبا أطيب من قلبه! لن تجدي! احبيه! أنتم طائشات أيتها الزوجات الشابات، تبحن في الرجل عن المظهر فقط...عن المؤثرات...أتوسل إليك!
خطف "ميشا" مرفقيها وضغط عليهما بتشنج بكفه. كانت ترافق صوته نبرة نحيب.

-لا تخونيه! خيانة هذا الرجل تعني خيانة الملاك! قدّريه واحبيه! إن حب هذا الرجل الرائع والإلتناء إليه...إنما هو سعادة! أنتم النساء لاترغبين في فهم الكثير...الكثير...إني أحبك بفضاعة وجنون لأنك ملكه! أقبل القداسة التي يملكها...هذه قبلة مقدسة...لا تخافي، أنا عريس...لا بأس....
تحول "ميشا"،لاهثا ومرتعشا من أذنيها نحو خدها ولمسه بشاربه..

- لا تخونيه يا عزيزتي! إنك تحببته أليس كذلك؟ نعم؟ تحببته؟
- نعم.

- آه، يالك من رائعة!

حدق "ميشا" في عينيها بفرح وحنان دقيقة واحدة. لقد قرأ فيهما روح نبيلة...
- أنت رائعة... - أردف "ميشا" ومد يده إلى خصرها - أنت تحببته... هذا الرائع... الملاك... طيب القلب... القلب...

كانت ترغب في إبعاد خصرها عن يديه وإلتفتت إلا أنها إلتحمت به أكثر... - هذه أريكة غير مريحة! -
وسقط رأسها على صدر "ميشا" من غير قصد - روحه... قلبه... كيف يمكن العثور على شخص آخر مثله؟
أحبيه... إسمعي دقات قلبه... إمضي معه يد بيد... وعاني وتقاسمي معه السعادة... إفهميني! إفهميني!
طفحت الدموع من عيني "ميشا"... طوى رأسه بتشنج وأسندته إلى صدرها وأجهش بالبكاء محتضنا "ماريا سيميونوفنا"...

كان الجلوس على تلك الأريكة غير مريح! كانت تريد التخلص من أحضانه ومواساته وقدئته... إنه مضطرب جدا! استشكره على وفائه لزوجها... لكنه لا ينهض!

- أحبيه... لا تخونيه... أتوسل إليك... أنتم النساء... طائشات... لا تفهمين...

لم ينطق ميشا بعد ذلك بكلمة واحدة... لقد أفرط لسانه بالكلام و همد...

بعد خمس دقائق دخل إلى غرفتها لأمر ما "إيفان بتروفيتش"... المسكين! لماذا لم يأت قبل الآن؟ عندما شاهد وجه المدير الأرجواني وقبضته المكورة وحين سمع صوته الخافت والمكبوت هبّا واقفين...
- ما خطبك؟ - سألت "ماريا سيميونوفنا" بوجهها الشاحب.

سألت لأنه كان عليها قول شيء ما!

- لكن... لكن أنا صادق النية، سعادتك! - غمغم "ميشا" - أقسم بشرفي، صادق النية!.

(*) - نُشرت القصة لأول مرة عام 1883، في مجلة "أسكولكي" (شطايا) الساخرة، العدد 7، باسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

أسئلة إضافية(*)

(اقترحها "أنتوشا تشيخونتي" لتضاف إلى بطاقة الإحصاء الشخصية)(1)

- 16 هل أنت ذكي أم أحمق؟
- 17 هل أنت رجل شريف؟ نصّاب؟ قاطع طريق؟ لنيم؟ محام أم ماذا؟
- 18 أي من الكتاب السآخرين أقرب إلى قلبك؟ "سوفورين"؟ "بوكفا"؟ "أميكوس"؟ "لوكين"؟ "يوري شريير"؟ أم من؟
- 19 أنت "يوسف" أم "كاليغولا" (2)؟ "سوسانين" (3) أم "نانا" (4)؟
- 20 زوجتك شقراء؟ سمراء؟ صهباء؟ برصاء؟
- 21 هل تضربك زوجتك أم لا؟ هل تضربها أنت أم لا؟
- 22 كم كان وزنك عندما كنت في سن العاشرة؟
- 23 هل تتناول المشروبات الروحية؟ نعم أم لا؟
- 24 بماذا كنت تفكر في ليلة الإحصاء؟
- 25 هل رأيت "سارا برنار" (5)؟.

(*)- نشرت لأول مرة عام 1882، في مجلة "بوديلنيك" (المنبه)، العدد 5.

- 1- "أنتوشا تشيخونتي": هو الاسم المستعار الذي كان يستخدمه تشيخوف في كتاباته الأولى. (المترجم).
- 2- "كاليغولا": هو القيصر "غي يولي" الإمبراطور الروماني الثالث. لُقّب بـ "كاليغولا" لأنه كان يلبس في صغره حذاء عسكريا. (المترجم).
- 3- "سوسانين": اسمه "ايفان سوسانين" وهو فلاح أنقذ القيصر الروسي "ميخائيل فيودوروفيتش" من الفشل في حربه ضد البولونيين، إذ إنه خدع الجنود البولونيين ودلهم إلى طريق خاطئ كله غابات ومستنقعات. (المترجم).
- 4- "نانا": وهو سايب نانا قائد إنتفاضة هندية عام 1857 ضد الأوروبيين. (المترجم).
- 5- "سارا برنار": ممثلة فرنسية شهيرة جدا. (المترجم).

قصص جزيرة (ساخالين)(*)

(حكاية "يغور")

غادرنا الطبيب الذي أقيم عنده إلى اليابسة فور إستقالته من وظيفته فإنتقلت للعيش في بيت أحد الموظفين الشباب الرائعين(1) . كانت تعمل لديه خادمة واحدة فقط، عجوز أوكرانية تقضي فترة حكمها بالأشغال الشاقة. نادرا ما كان يعرج عليه المنفي "يغور" الخطاب. مرة واحدة في اليوم. لا يمكن إعتباره خادما إذ إنه كان يأتي بالخطب من "باب الاحترام" ويزيل الأوساخ من المطبخ. على العموم، كان ينفذ الأعمال التي لم تقو العجوز على تنفيذها. يحدث أن تجلس وتقرأ أو تكتب وتسمع فجأة حفيف شيء أو لهاث أحد ما وشيء ثقيل يتحرك تحت الطاولة بالقرب من الأقدام. تتطلع: إنه "يغور"، حاف القدمين يجمع الأوراق تحت الطاولة أو يزيل الغبار. عمره أربعون عاما تقريبا وهو رجل أحرق، ثقيل الحركة، يفتقد اللياقة وذي وجه ساذج وبليد للوهلة الأولى وذو فم عريض شبيه بفاه السمك النهري. شكله أمغر وله لحية طرية وعينان صغيرتان. لا يجيب على سؤالك فوراً. ينظر إليك في البداية بطرف عينية ومن ثم يسأل: "ها؟". أو: من تريد؟". يناديك بصاحب السعادة ولكن يقول : أنت!، بدلا من أنتم!. لا يمكنه الجلوس دون عمل دقيقة واحدة. تجده في كل مكان. يتحدث إليك وتبحث عيناه في الوقت ذاته عن شيء ما ينظفه أو يقوم بصيانته. ينام ساعتين أو ثلاث فقط باليوم لأن لا وقت لديه لذلك. في الأعياد يقف عادة في مكان ما عند منعطف الشارع يلبس سترة على قميص أحمر اللون، مبرزاً كرشه إلى الأمام مباعدا بين ساقيه. هذا يعني -حسب إعتقاده- بأنه "يتتره".

هنا في المنفى، بنى بنفسه كوخا وصنع سلالا وطاولات وخزائن تافهة. ويأمكنه صنع قطع الموبيليا ولكن "لنفسه" فقط، أي لإحتياجاته. لم يعارك أحد أبدا ولم يُضرب هو أيضا. في وقت ما من طفولته ضربه والده فقط لأنه كان يحرس الحبوب وسمح للديكة بأكله.

في إحدى المرات جرى بيننا الحديث التالي:

— لماذا تم نفيك إلى هنا-سألته.

— ها! ماذا تقول يا صاحب المعالي؟

— لماذا نُفيت إلى (ساخالين)؟

— جريمة قتل.

— حدثني من البداية كيف حدث ذلك!.

وقف "يغور" بالقرب من عضادة الباب ووضع يديه خلف ظهره وقال:

— ذهبنا إلى النبيل "فلاديمير ميخايلوفيتش"، ساومناه بشأن شراء الحطب ونشره وتوريده إلى المخطط. ساومناه بنجاح، وعدنا إلى البيت. إبتعدنا قليلا عن القرية، أرسلني أصحابي إلى الإدارة لكي أصدق العقد. كنت أركب حصانا وفي طريقي إلى الإدارة نصحني "أندريوخا"⁽²⁾ بالعودة بسبب مد البحر الكبير وصعوبة العبور. "قال لي:—"غدا"ستذهب إلى الإدارة للتحدث في أمر أرضك المستأجرة وشروط التصديق". حسنا. ذهبنا من هناك سوية: أنا على الحصان أما الباقون فكانوا راجلين. وصلنا إلى قرية (باراخين). عرج الرجال إلى الحانة ليدخنوا هناك، أما أنا و"أندريوخا" فتأخرنا عنهم وبقينا على الرصيف بالقرب من الحانة. قال لي: هل لديك يا أخي خمس روبلات؟ أريد أن اشرب قليلا. قلت له: نعم يا أخي، أنت رجل إذا دخلت وشربت بخمس روبلات ستسكر حتما. أما هو فقال: كلا لن أسكر"سأشرب وأذهب إلى البيت". دخلنا إلى الرجال في الحانة وجمعنا مبلغا يكفي لشراء زجاجة وجلسنا نشرب خلف الطاولة.

— تحدث يا مختصار— أشرت إليه.

— لحظة! لا تقاطعني يا صاحب المعالي. شربنا زجاجة الفودكا تلك وها هو "أندريوخا" يشتري زجاجة أخرى مكثفة الكحول!. سكب لي ولنفسه. شرب كل منا كأسا. وهنا غادر أصحابي الحانة إلى البيت وتبعناهم نحن أيضا. أحسست بنفسني محطما فوق الحصان. نزلت وجلست على الشاطئ... غنيت بعض الأغاني ومزحت. لم نتفوه في أثناء حديثنا بأمر سيء ومن ثم نهضنا وذهبنا.

— حدثني عن جريمة القتل—قاطعته.

— لحظة. إستلقيت في البيت وغمت حتى الصباح إلى أن تم إيقافني: "هيا، من منكم ضرب "أندريه"؟ وهنا جاءوا بـ "أندريه" ووصل الشرطي. بدأ الشرطي بالتحقيق معنا جميعا. لا أحد منا إعترف بهذه القضية. وكان "أندريه" ما يزال حيا ويقول: "أنت يا "سيرغوخا" (3) ضربتني أثناء المشادة ولا أتذكر شيئا بعد ذلك". لم يعترف "سيرغوخا". إعتقدنا جميعنا إن "سيرغوخا" هو الفاعل. وبدأنا بمراقبته لكي لا يتصرف بحماقات. توفي "أندريوخا" في اليوم التالي. قال أقرباء "سيرغي" له، شقيقته وزوجها: "أنت يا سيرغي لا تعاند ولا تكثر بشئ، إعترف وتقدم وقل من ضربت. ستريح نفسك". بعد أن توفي "أندريه" إجتمعنا لدى المختار ودعينا "سيرغي" أيضا. حققنا مع "سيرغي" إلا إنه لم يعترف، ثم دعينا لقضاء الليلة معنا في البيت. كان يحرسه البعض لكي لا يرتكب حماقة. كان لديه سلاح. هذا خطر!. وفي الصباح، حين تداركنا الأمر لم نجده. فتشنا بيته وكل القرية وبحشنا عنه في الحقول ومن ثم عدنا من المعسكر وأعلننا إن لا وجود لـ "سيرغي". وهنا بدأوا بإعتقالنا. أما سيرغي فقد ذهب إلى قائد المعسكر وإلى الشرطة وركع أمامهم وبدأ يقول عنا بإننا نحن أولاد "يفريموف" قررنا منذ ثلاث سنوات ضرب "أندريوخا". وأضاف: "يا أعزائي، سرنا نحن الثلاثة: "إيفان" و"يغور" وأنا وإتفقنا على ضربه معا. وأضاف: ضربت "سيرغي" بمدينة صغيرة أما "إيفان" و"يغور" فأوسعوه ضربا فأصابني الهلع وإبتعدت ومن ثم فررت للحاق بالرجال. بعد ذلك أخذونا أنا و"إيفان" و"كيرشا" و"سيرغي" إلى سجن المدينة.

— من هم "إيفان" و"كيرشا"؟.

— أشقائي. جاءنا التاجر "بيوتر ميخايلوفيتش" إلى السجن وأطلق سراحنا بكفالة وبقينا معه بكفالة حتى مدينة (بوكروف). عشنا بشكل جيد لا ينقصنا شيء. وفي اليوم التالي قاموا بمحاكمتنا في (بوكروف). كان لدى "كيرشا" شهود. الرجال الذين تأخروا في المسير شهدوا على إنه كان معهم أما أنا وأخي فنكل بنا. قلت في المحكمة كل ما أحدثك به الآن ولكن المحكمة لم تصدقني وقالوا: "الجميع يقول ذلك ويقسم ولكنهم يكذبون". حكموا علي بالسجن ولم يسمح لنا بالخروج ولكن كنت أكنس أرضية السجن وأقدم طعام الغداء. كنت أقبض من كل واحد لقاء ذلك قطعة خبز في الشهر، أي ثلاثة أرطال من الشخص. عندما سمعنا بإننا سنخرج، أرسلت برقية إلى البيت قبل عيد القديس "نيكولاي". زارني شقيقي "جينكا" وأخي "كيرشا" وجلبوا معهم قليل من الثياب وأشياء أخرى.. بكت "جينكا" وناحت ولكن ما باليد حيلة. بعد أن غادرتني أرسلت لها إلى البيت قطعتين من الخبز. بكينا. وبلغت تحياقي إلى الأطفال وكافة الصغار. وفي الطريق سرنا مكبلين. سرنا خلف بعضنا، شخصان في كل صف. سرت برفقة "إيفان". نُزعت عنا في مدينة (نوفغورود) البطاقات ثم حلّقوا رؤوسنا ومن ثم قادونا إلى (موسكو). عندما كنا محبوسين في موسكو أرسلنا إلتماسا نطالب فيه بالعفو عنا. ولا أدري كيف سافرت إلى (اوديسا). إتهالت علينا الأسئلة لدى الطبيب. نزعوا عنا ثيابنا كلها وتفحصوها. من ثم جمعونا وقادونا إلى الباخرة. وهنا صعد معنا القوزاق والجنود جنباً إلى جنب على الدرج ووجدنا أنفسنا بالداخل. جلسنا على أرضية خشبية، كل في مكان خصص له. جلسنا نحن خمسة أشخاص على الرفوف العليا، لم نفهم في البداية شيئاً ومن ثم قالوا: "الرحل..الرحل..". سافرنا... وسافرنا ومن ثم بدأت الأرض تتهتز تحتنا. الحرارة مرتفعة والناس عراة. كان هناك المريض وآخرون لا يأهون بشيء. كنا مستلقين طبعاً، معظم الوقت. العاصفة كانت قوية. كانت تميل بنا من جنب إلى جنب. سافرنا وسافرنا إلى أن توقفنا. كان شيء ما يهزنا. كان الضباب كثيفاً وخيم الظلام. بعد ذلك بدأ الإهتزاز تحتنا، حيث الصخور، وإعتقدنا إن سمكة ما تحتنا تحرك الباخرة بتناقل. دفعونا إلى الامام... دفعونا دون فائدة ترجى. وإلى الخلف بدأوا بدفعنا ولكن شيء ما تكسر. بدأوا بسد الثقب في الشراع ولكن دون فائدة. تجمعت المياه على الأرضية حيث يجلس الناس وخرجت المياه من تحتهم. الناس ترجوهم: "لا تدفعونا إلى التهلكة يا صاحب المعالي!.. فرد ذلك في البداية: "لا تولولوا.. لا تودعوا.. لن أدعكم تهلكون". ومن ثم بدأت المياه تتجمع على الأرضية الخشبية السفلى. بدأ المعمدون بالوداع والولولة وقال النبيل: "أيها الشباب، سأحرر أصفادكم ولكن لا تتمردوا والا سأطلق النار على الجميع". ومن ثم حررنا وقمنا بالصلاة لكي يغفر لنا الرب ولا يهلكنا. صلينا راكعين. بعد الصلاة قدموا لنا البسكويت الجاف والسكر وهدأ البحر. وفي اليوم التالي نقلوا الناس إلى الشاطئ على ظهر زوارق. صلينا على الشاطئ ومن ثم نقلونا إلى مركب آخر تركي(4) ومن ثم إلى هنا، إلى (الكسندروفسك). نزلنا وكان المرفأ منيراً. واحتفظوا بنا هنا طويلاً وغادروا المرفأ في الظلام. سار المعمدون كالأغصان المجذولة وهنا أصابنا عمى الليل، تمسك البعض ببعضنا. قدت عشرة من المعمدين وقادونا إلى السجن. وفي الباحة

توزعنا على غرف السجن عشوائيا. تناولنا طعام العشاء قبل النوم كل بقدر مالىديه من زاد وفي الصباح بدأوا بإعطائنا ما يلزم. إسترحنا يومان أو ثلاثة وخصص اليوم الثالث للحمام وفي اليوم الرابع قادونا إلى العمل...حفرنا في البداية المجاري تحت المبنى حيث الجناح الأرضي الآن. إقتلعنا وجنينا وحفرنا وما إلى ذلك، هكذا طوال إسبوع أو إسبوعين أو ربما شهر، ومن ثم نقلنا الأخشاب من منطقة قرب(ميخايلوفكا). جردنا الأخشاب لعدة كيلومترات بصدورنا ورميناها قرب الجسر ومن ثم إلى البستان لحفر السواقي من أجل الماء. وعندما حان وقت حصاد الأعشاب بدأوا بجمع المعمدين وسألوا: "من منكم يجيد الحصاد وتم تسجيل من إعترف . أعطوا الجميع الخبز والدقيق واللحم وقادونا مع المراقب لحصاد الأعشاب إلى(آرمودان). لم اشكو من شئ هناك إذ منحني الرب الصحة وقمت بالحصاد على أكمل وجه. عاقب المراقب البعض أما أنا فلم أسمع كلمة واحدة سيئة. عاتبني الرجال وحدهم وقالوا: "— لماذا تعمل بسرعة!. أجبت: لا شئ من هذا القليل. في أوقات الفراغ أوهطول الأمطار كنت أحيك لنفسى الصنادل . ينام الناس بعد العمل أما أنا فأجلس وأحيك. كنت أبيع الصنادل لقاء قطعتين من اللحم أي بأربع كوبيكات. بعد حصاد الأعشاب نعود إلى البيت وعند عودتنا ألغوا عنا السجن ومن ثم أخذوني عاملا إلى المستوطن "ساشكا" من (ميخايلوفكا). كنت أعمل عند "ساشكا" كل الأعمال المتعلقة بالزراعة. أنظف وأطحن وأقتلع البطاطا ، أما "ساشكا" فكان يبيع الخشب دون علمي. ليته أعطاني القليل مما باعه. عملت معه شهران وأربعة أيام .وعدني "ساشكا" بالنقود ولكنه خان وعده ولم يعطيني شئ يذكر. أعطاني قليلا من البطاطا. أعادني ساشكا إلى السجن. أعطوني فأسا وحبالا—لنقل الحطب، وقمت بإيقاد سبعة أفران، كنت أعيش في خيمة. أنقل الماء وأنظف بدلا من "الكالماجي"(5).كنت أقوم بحراسة بيت التتري "المازغي"(6). وعندما أعود من العمل كان يأتمني على حراسة "ميدانه"(7)كنت أبيع عنه ويعطيني خمسة عشر كوبيكا في الليلة. بدأت في الربيع عندما أصبح النهار أطول، بحياكة الأخفاف والصنادل. أبيعها بعشرة كوبيكات وفي الصيف أنقل الحطب مع التيار النهري. جمعت كمية لا بأس بها ومن ثم بعته إلى اليهودي صاحب الحمام. جمعت أيضا ستين شجرة وبعته بخمسة عشر كوبيكا. وها أنا ذا أعيش بتواضع على قدر ما يرزقني الرب، لكن يا صاحب المعالي، لا وقت لدي للتحدث إليك، علي الذهاب لجلب الماء.

— هل إقترب موعد تحولك إلى مستوطن؟.

— بعد خمس سنوات.

— هل تشناق إلى البيت؟.

— كلا، لكن أشفق على الأطفال فقط. ما زالوا يافعين.

— قل لي يا "يغور" بماذا كنت تفكر في (أوديسا) عندما قادوك إلى الباخرة؟

—صليت لربي.

— لأجل من؟.

— ليرشد الاطفال.

— لماذا لم تصطحب الزوجة والاطفال معك إلى ساخالين؟.

— لأنهم مرتاحون في البيت...

(*)-نشرت قصصه عن "جزيرة (ساخالين)" لأول مرة من عام 1891 ولغاية عام 1894، في مجلة "روسكايا ميسل" (الفكر الروسي)، الأعداد:

6،7،10،11،12،2،3،5، باسم "أ. تشيخوف".

1- ويقصد بذلك صديقه "بولغاريفيتش"، مفتش مدارس ساخالين وأمين سر إدارة الجزيرة. (الناشر)

2- "أندريوخا": أسم التحب من "أندريه". (المترجم).

3- "سيرغوخا": أسم التحب من "سيرغي". (المترجم).

4- يدور الحديث هنا عن غرق الباخرة (كوستروما) على الشواطئ الغربية من جزيرة (ساخالين) عام 1887. (الناشر)

5- "الكالماجي": السكان الاصليون في المنطقة المذكورة. (المترجم).

6- "المازغي": ويقصد بذلك هنا "المانزا الصيني". (تشيخوف).

7- "مايدان": مكان مخصص لبيع السلع في السوق الشعبية. (الناشر).

من يوميات معاون محاسب

- 11\أيار\1863: شرب محاسبنا "غلوتكين" البالغ من العمر ستين عاما، الحليب مع الكونياك لمعالجة السعال فأصيب بسبب ذلك بهذيان السكرى. أكد الأطباء المعروفين بثقتهم الزائدة بالنفس بأنه سيموت غدا. وأخيرا سَأصبح محاسبنا. لقد وعدت منذ زمن طويل بهذه الوظيفة.
- سيتم محاكمة رئيس الديوان "كليشيف" بسبب ضربه مراجع ناداه بالبىروقراطى. أعتقد إن الأمر محسوم. تناولت شراب الأعشاب لمعالجة التهاب المعدة.
- 3\آب\1865: أُصيب المحاسب مرة أخرى بمرض في صدره. بدأ يسعل و يشرب الحليب مع الكونياك. إذا توفي سأحل محله. لدي أمل و لو إنه بصيص، إذ إن هذيان السكرى ليس بقاتل دائما..
- خطف "كليشيف" كميالة من الأرمني ومزقها. ستؤدي الأمور على الأغلب إلى المحكمة.
- قالت المرأة العجوز "غورييفنا" البارحة إن الذي أعانيه إنما هو مرض البواسير وليس إلتهاب المعدة. هذا ممكن جدا!!
- 30\حزيران\1867: أذيع يان الكوليرا تفشت في البلاد العربية. قد يصل الوباء إلى روسيا، ستتوفر عندئذ شواغر جديدة. وقد ينتقل العجوز "غلوتكين" إلى رحمة الله وأستلم وظيفة المحاسب. إنه شخص صامد. برأي إن بقاءه حيا طويلا هكذا يستحق اللوم.
- أي دواء يفيد علاج إلتهاب المعدة؟ هل أتناول شراب الشيخ؟!.
- 2\كانون الثاني\1870: نبج كلب بالقرب من منزل "غلوتكين" طوال الليل. قالت لي طبختي "بيلاغيا" إن هذا نذير شؤم وتحدثنا أنا وهي حتى الساعة الثانية صباحا تقريبا حول نيتي بعد أن أصبح محاسبنا في شراء معطف فرو الراكون وبيجامة نوم. وقد أتزوج، لكن من أرملة وليس من فتاة لأن سني لا يسمح بذلك... طُرد "كليشيف" البارحة من النادي بسبب نكتة بذينة ألقاها وسخريته من وطنية "بونيوخوف" عضو اللجنة التجارية. قيل يان الأخير رفع دعوة ضده.
- أريد الذهاب إلى الدكتور "بوتكين" لمعالجة إلتهاب المعدة. يقال يان علاجه ناجع....
- 4\حزيران\1878: كتبت الصحف حول الطاعون الذي إستشرى في (فيتليانكا) وكثرة الناس الذين يقضون نحبهم. يشرب "غلوتكين" في هذه المناسبة منقوع الفلفل، لكن لا أظن إن هذا المنقوع سيفيد عجوز مثله. إذا وصل وباء الطاعون فمن المعقول جدا أن أصبح محاسبنا...
- 4\حزيران\1883: "غلوتكين" يحتضر. زرتة وطلبت منه، ودموعي تنهمر، الصفح على ترقبي لوفاته بصبر نافذ. سامحني بشهامة وعيناه تدمعان ونصحني باستعمال منقوع البلوط والقهوة لمعالجة إلتهاب المعدة.

أما كليشيف فكاد أن يُحال إلى القضاء مرة أخرى: لقد رهن لدى اليهودي آلة البيانو التي استأجرها . بالرغم من ذلك فهو حاصل على وسام الدرجة الثالثة ويشغل منصب من الدرجة الثامنة. شيء غريب يحدث لهذا العالم!!!.

ملعقتا زنجبيل وملعقة ونصف من جذر الإنجبار وملعقة من الفودكا الحارة وخمسة ملاعق عشب السميلاسين ومن ثم خلطها ونقعها في زجاجة فودكا وتناولها على الريق لمعالجة التهاب المعدة. ٧\حزيران من نفس العام: تمّ البارحة تشييع جثمان "غلو تكين". موت العجوز، مع الأسف لم يكن من صالح. يزورني في منامي ليلا وهو يرتدي قلنسوة بيضاء ويومئ بأصابعه. يا لحظي التعيس أنا المنحوس. لست أنا المحاسب وإنما "تشاليكوف". لم ألاحظ بهذه الوظيفة وإنما حظي بها ذلك الشاب بدعم من عمته زوجة أحد الجنرالات. ذهبت كل آمالي في مهب الريح!.

10\حزيران\1886: فرت زوجة "تشاليكوف" من زوجها وهو الآن حزين ذلك المسكين. قد ينتحر بسبب المصيبة. في حال إنتحاره سأكون أنا المحاسب- هذا هو حديث اليوم. معنى ذلك بإمكانني العيش ومن المحتمل أن يكون موعدي مع معطف الفرو قريبا. أما فيما يخص الزواج فأنا لست ضد ذلك. لماذا لا أتزوج إذا سنحت الفرصة بذلك؟ عليّ فقط إستشارة أحد ما لأن هذه الخطوة جديدة.

بادل "كليشيف" جرموقه بجرموق الجنرال "ليرمانس". يا للفضيحة!!
نصحني البواب "باييسي" بإستخدام ملح الزئبق لمعالجة التهاب المعدة. سأجرب.

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1883، في مجلة "أسكولكي" (شظايا) الساخرة، العدد 25 بتوقيع: "رجل من دون طحال".

دفتر الشكاوى(*)

يتواجد هذا الدفتر على منصدة صنعت خصيصا له في محطة السكك الحديدية. ومفتاح هذه المنصدة "بحوزة دركي الحطة". أما في الواقع فلا حاجة إلى أية مفاتيح لإن المنصدة مفتوحة دائما...إفتح و إقرأ: "سيدي الكريم! إختبار ريشة القلم؟!".

و رُسم في أسفل ذلك وجه دميم ذو أنف طويل وكتب تحت هذا الوجه:

"أنت لوحه، أنا صورة. أنت بهيمة، أنا لا. أنا وجهك القبيح!".

"حين وصولي إلى هذه الحطة ومشاهدي للطبيعة من خلال النافذة، طارت مني قبعتي. "إ. يارمونكين".
"لا أعلم من كتب هذا ، وأنا الغبي أقرأ ذلك".

"ترك ذكره "كولوفروف"، مدير مكتب الدعاوى".

"أقدم شكواي للإدارة ضد الجابي "كوتشكين" لفظاظته مع زوجتي. لم تثر زوجتي لغطا أبدا، بل بالعكس، كانت تحرص على أن تكون الأمور هادئة. وأيضا ضد الدركي "كلياتفين" الذي جرتني من كتفي بفظاظه. أقيم في مزرعة "أندريه إيشيف" وهو على علم بسلوكي. كاتب الحسابات "سامولوتشين".
"نيكاندروف" اشتراكي!".

"كنت لا أزال تحت تأثير الإنطباعات الجديدة بشأن السلوك الفطيع... (كلمات مشطوبة). عندما مررنا من هذه الحطة ،أثار إستيائي الشديد الأمر التالي... (كلمات مشطوبة). جرت الحادثة الشنيعة أمام عيني... (كلمات مشطوبة) مما يعطي إنطباعا سيئا عن حالة سكننا الحديدية... (كل الكلمات التالية مشطوبة عدا التوقيع). تلميذ الصف السابع في مدرسة (كورسك) الثانوية "الكسي زوديف".
"عند إنتظاري مغادرة القطار تفحصت شكل مدير الحطة فوجدته غير مقبول أبدا. أعلن عن هذا حسب الأصول. صاحب بيت ريفي متهور".

"لا اعلم من كتب هذا. كتب هذا م. د.".

"يا سادة! نصاب العجول!!".

"ذهبت زوجة الدركي مع عامل البوفيه "كوستكا" إلى ضفة النهر الأخرى. مع تمنياتنا الطيبة. لا تقلق أيها الدركي!".

"نويت عند توقفي في هذه الحطة تناول طعام بالصيام ولكنني لم أعثر على شيء من ذلك. "القس دوخوف".

"تناول ما يقدم لك".

"من يعثر على حافظة سجائر جلدية فليسلمها إلى "أندريه يغوريتش" في شباك التذاكر".

"نظرا لفصلي من الخدمة بسبب تناولي للكحول، كما يدعون، أعلن يان جميعكم نصابون ولصوص.
موظف البريد "كوزمودميانسكي".
"تحلوا بالفضيلة".
"كاتينكا"! أنا احبك بجنون!".
"أرجو عدم كتابة الأمور الغريبة في دفتر الشكاوى. "نائب مدير المخططة "إيفانوف" السابع".
" رغم إنك السابع، لكنك غبي".

(*)—نُشرت لأول مرة عام 1884، في مجلة: "أسكولكي" (شظايا) الساخرة تحت عنوان "صورة طبق الأصل، العدد 10، بتوقيع: أ. تشيخونتي".

جزيرة ساخالين

(يوميات مسافر)

وصلت في الخامس من تموز عام 1890 على الباخرة إلى مدينة (نيقولايفسك)، وهي واحدة من أبعد النقاط الشرقية في وطننا. نهر (الأمور) هنا عريض جدا ويبعد عن البحر حوالي سبعة وعشرين فرستا(1). المكان رائع وجميل لكن الذكريات عن ماضي هذه الاصقاع وأحاديث المرافقين عن الحياة القاسية والعادات الأكثر قساوة وقرب منفي الأشغال الشاقة وشكل المدينة المهملة ذاته يبعد عنك الرغبة في التمتع بالمناظر الطبيعية.

أسس مدينة (نيقولايفسك) عام 1850 السيد "غينا دي نيفيلسكي" الشهير(2) وهذه هي السمة الوحيدة المشرفة في تاريخ المدينة. ففي الخمسينات والستينات، حين نُشرت الحضارة هنا دون شفقة تذكر بالجنود والموقوفين والمستوطنين، كان يدير إقليم (نيقولايفسك) بعض الموظفين ومن ثم تقاطر إليها مختلف المغامرين الروس والأجانب وإستوطنوا فيها، إذ أغرقهم الكميات الهائلة من الأسماك والوحوش، لكن بدا لي إن الإهتمامات الإنسانية لم تكن غريبة عن المدينة. لقد سمعت بأن أحد العلماء القادمين إليها وجد أنه من الواجب ومن الممكن إلقاء محاضرة عامة في نادي المدينة. أما الآن فنصف البيوت مهجورة تركها أصحابها شبه منهارة وذات نوافذ مظلمة من دون إطارات تنظر إليك كتجاويف العين في هيكل جمجمة. تمضي حياة سكان المنطقة في سبات وسكر. ويجدر بنا القول بأنهم يعيشون شبه جائعين يقتاتون من ما يهبهم الله. يرتزقون من توريد الأسماك إلى (ساخالين) والتنقيب غير المرخص عن الذهب وإستغلال الغرباء وبيع قرون الإبل التي يستحضر منها الصينيون كبسولات مثيرة للغرائز. في طريقي من (خاباروفسك) إلى (نيقولايفسك) صادفت عددا كبيرا من المهربين فهم هنا لا يخفون صنعتههم. قال لي أحدهم بإفتخار وهو يريني كومة من ذرات الذهب وزوج من القرون:—"والدي أيضا كان مهربا!". إستغلال الأجانب بالإضافة إلى إدمانهم على المشروبات الكحولية وإستغفالهم للغرباء يحدث بشكل مميز: فالتاجر المرحوم "إيفانوف" من (نيقولايفسك) كان يسافر كل صيف إلى (ساخالين) ويقبض الفدية من "الغلياك"(3) أما الرافضون فكان نصيبهم التعذيب أو الشنق.

لا يوجد فندق في المدينة وسمحوا لي في المجلس البلدي بالراحة بعد طعام الغداء في صالة ذات سقف خفيض، يقال بأن حفلات راقصة تُنظم فيه شتاء، وردا على سؤالي أين يمكنني قضاء ليلي ردوا بهزة كتف فحسب. أضطرت قضاء ليلتين على الباخرة وعندما غادرت الباخرة عائدة إلى (ساخالين) وجدت نفسي كالسرطان البحري على الشاطئ الرملي. أي وجهة أختار؟. كانت أمتعتي في المرسى. أتجول على الشاطئ ولا أدري كيف أتصرف!.

على بعد إثنان أو ثلاثة كيلومترات من الشاطئ، قبالة المدينة تماما كانت ترسو "بايكال" الباخرة التي ستقلني إلى مضيق (التار)، لكن قيل بأنهما لن تبحرا إلا بعد أربعة أيام أو خمسة مع إن راية الإبحار كانت ترفرف على ساريتها. أأذهب إلى "بايكال"؟. لا يُحبذ القيام بذلك لأنهم لن يسمحوا لي بالصعود وسيقولون: لم يكن موعد

الابحار بعد. هبت الرياح وتجمعت الغيوم فوق نهر (آمور) وبدأ هيجان البحر وخيمت الكآبة على الجو. أذهب إلى المطعم وأتناول طعام الغداء طويلا وأستمع إلى أحاديث الطاولة المجاورة عن الذهب والجسور العائمة والمشعوذ الذي قديم إلى (نيقولاي فسك) وعن أحد اليابانيين الذي كان يقوم بخلع الأسنان بأصابعه فحسب دون إستخدام الملقط. لو إسترقيت السمع طويلا ويانتباه لتيقنت كم هي بعيدة يا إلهي الحياة هنا عن روسيا! ابتداءً من سمك "السلمون السيبري" المملح الذي يتناولونه أثناء شرب الفودكا وإنتهاء بأحاديثهم، تشعر في ذلك كله بشئ ما خاص بهم، غير روسي. عندما كنت أبحر في (آمور) تملكني شعور كأنني لست في (روسيا) وإنما في مكان ما مثل (باتاغونيا) (4) أو (تكساس)، ناهيك عن الطبيعة الفريدة غير الروسية. كان يخيل إلي بأن طبيعة حياتنا الروسية غريبة جدا عن سكان (آمور) الاصليين وإن "بوشكين" و"غوغل" غير مفهومين ولذلك لا حاجة إليهم هنا وإن تاريخنا مل ونبذو أجانب هنا، نحن من قدم من (روسيا)، ولاحظت هنا اللامبالاة المطلقة بالأمور الدينية والسياسية. ويتناول رجال الدين الذين صادفتهم في (آمور) الطعام العادي أيام الصوم وحدثني البعض بالمناسبة عن أحد هؤلاء ويلبس ثوبا حريريا أبيضاً يمتن سرقه الذهب منافسا رفاقه الروحيين. إذا ما أردت أن يضجر أو يمل الرجل الأموري فما عليك إلا التحدث في السياسة وعن الحكومة الروسية وعن الفن الروسي. وللأخلاق هنا شيء ما خصوصي ليس منا؛ معاملة النساء على طريقة الفرسان تعلو إلى مستوى التأليه تقريبا وفي الوقت ذاته لا يعتبر تصرفا يستحق اللوم حين يتنازل الشخص عن زوجته لزميله لقاء مبلغ ما. أو إليك مثال أفضل: من جهة، غياب التمايز الطبقي ومعاملة المنفيين كغيرهم من الناس ومن جهة أخرى لا يعتبر خطيئة أبدا إطلاق النار على متشرد صيني كما تطلق على الكلاب أو إصطياد الحيتان الحدياء سرا.

أعود لأتحدث عن نفسي. حين وجدت إن لا مأوى ألقأ إليه قررت مع إقتراب المساء التوجه إلى: "بايكال" لكن صادفتني عقبة جديدة ألا وهي الأمواج العاتية التي لا يستهان بها ورفض أصحاب القوارب "الغلياك" نقلي مهما كان الثمن. صرت أمشي من جديد على الضفة ولا أدري ماذا أفعل. بدأت الشمس تغيب في هذه الأثناء وأظلمت أمواج نهر الأمور ونبحت في كلتا الضفتين كلاب "الغلياك" دون توقف. لماذا قدمت إلى هذه الاصقاع؟- سألت نفسي وبدأت لي رحلي ضربا من الطيش. وأقلقتني فكرة إقترابي من مكان المنفيين وإن قدماي ستطأن أرض (ساخالين) بعد عدة أيام دون أن أحمل رسالة توصية واحدة وإن بإمكانهم الطلب مني العودة من حيث أتيت. وافق "الغلياك" أخيرا على نقلي لقاء روبل واحد بالقارب المصنوع من ثلاثة ألواح خشبية ووصلت إلى "بايكال" بأمان. كانت "بايكال" باخرة بحرية متوسطة الحجم وبدأ لي صاحبها التاجر مقبولا إلى حد كبير. كان التاجر يقوم برحلات بين (نيقولاي فسك) و(فلاديفستوك) والموانئ اليابانية ويحمل البريد والجنود والموقوفين (5) والركاب والحمولات، أغلبها حكومية بعقود موقعة مع السلطات التي تدفع لصاحبها مبالغ لا بأس بها وعليه التوجه عدة مرات في الصيف إلى (ساخالين) أي مركز (الكسندروفسك) وجنوب (كورسافسك). الأسعار هنا مرتفعة جدا وعلى الأغلب لا يوجد مثيلها في الكون. إن إستيطان

المنطقة يتطلب قبل كل شيء الحرية وسهولة التنقل فلماذا الأسعار مرتفعة جدا؟! كل هذا عصي على الفهم. صالة الباخرة والقمرات على "بايكال" ضيقة ولكنها نظيفة ومفروشة بطريقة أوروبية ويوجد بيانو أيضا. الخدم هنا صينيون بمجائيل طويلة ويسمونهم "بوي" بالإنكليزية. الطباخون أيضا صينيون ولكن المطبخ روسي رغم إن الطعام يصدف أن يكون مرا بسبب بمهارات الكيري وتفوح منه رائحة عطور شبيهة بالـ "كوربوسيس" (6). من فرط قراءتي عن عواصف وجليد مضيق (التار) توقعت أن ألتقي على ظهر "البايكال" بصيادي الحيتان بأصواتهم المبحوحة يلفظون أثناء تحدثهم لبنان تبغي لكنني شاهدت في الواقع أناس مثقفون تماما. ربان الباخرة السيد "ل"، أصله من الأصقاع الغربية يمارس مهنته في بحار الشمال أكثر من ثلاثين عاما اجتازها طولا وعرضا وصادف في حياته عجائب كثيرة. إنه يعرف الكثير وهو متحدث لبق. لقد قضى نصف حياته يطوف الـ "كامتشاتكا" وجزر "الكوريل" ويحق له أكثر من عطيل التحدث عن "الصحراوات المجذبة والأعماق المخيفة والجروف صعبة المنال" (7) ويعود الفضل إليه في حصولي على معلومات جمّة أفادتني في كتابة هذه اليوميات وكان يساعده ثلاثة أشخاص: السيد "ب". وهو ابن شقيقة عالم الفلك المعروف "ب". وسويديان هما "إيفان مارتينيتش" و"إيفان بنيامينوفيتش" وهم أناس ظرفاء وودودين.

رُفع الياطر إلى سطح "البايكال" في الثامن من تموز قبل الغداء ورافقنا في الرحلة ثلاثمائة جندي بأمرة ضابط وعدد من الموقوفين. كانت ترافق أحد المساجين ابنته التي لايتجاوز عمرها الربيع الخامس. كانت ممسكة بأصفاة والدها في أثناء صعوده سلم الباخرة وكانت هناك أيضا معتقلة لفتت إنتباهي بسبب مرافقة زوجها لها طوعية. بالإضافة إلي والضابط كان هناك عدد من المسافرين من الطبقة الراقية ومن الجنسين بينهم، بالمناسبة، إحدى البارونات. لا داع للإندهاش أيها القارئ من وجود هذا الكم الكبير من الناس المثقفين هنا في هذه المنطقة الموحشة. يُشكل المثقفون في منطقة (آمور) نسبة لا بأس بها بين عدد السكان الضئيل. وتفوق نسبتها بين السكان بالمقارنة مع أي مقاطعة روسية. وهناك مدينة (آمور) التي يبلغ فيها عدد الجنرالات والعسكريين المتطوعين ستة عشرة ويكون الآن قد أصبح عددهم أكثر بقليل.

كان اليوم هادئا والسما صافية والحر على ظهر الباخرة وفي القمرات خانقا وتبلغ درجة الحرارة +18 درجة مئوية مثلها مثل الحرارة على البحر الاسود. على الضفة اليمنى كانت الغابة تحترق. التلة الخضراء الكثيفة تلفظ عن نفسها هيب قرمزي وتراصت أعمدة الدخان في شريط طويل ثابت يعلو الغابة... حرائق هائلة ولكن المحيط هادئ وساكن ولا أحد يهتم بإحتضار الغابات. يبدو إن الشروة الخضراء هي ملك الرب وحده.

بعد طعام الغداء أي في الساعة السادسة كنا قد بلغنا رأس (برونغي). هنا تنتهي (آسيا) وبمقدورنا القول إن نهر (الأمور) في هذا المكان يصب في المحيط العظيم لو لم تكن جزيرة ساخالين عائقا له. وتنبسط أمام الأنظار برحابة مدينة (ليمان) وإلى الأمام قليلا ترى رقعة ضبابية - إنها جزيرة المنفيين وإلى الشمال يختفي في سديمه وضائعا في تعرجاته الشاطئ الممتد إلى الشمال الجھول. يخيل إليك إن نهاية العالم هنا ولا إتجاه آخر تعوم

نحوه وتغمر روحك مشاعر لعلها ذات المشاعر التي غمرت "أوديس" عندما كان يجوب البحار الجهولة وهو واجسه المبهمة من مصادفة كائنات غريبة. وبالفعل، على اليمين من المنعطف المؤدي إلى (ليمان) حيث تربعت على المضحل قرية غلياكية صغيرة، جذفت نحونا على زورقين كائنات غريبة تصرخ بلغة مبهممة وتلوح بشئ ما من الصعب التكهّن بما يحملونه بأيديهم ولكن بعد إقترابهم منا ميّزت طيور رمادية. -إنهم يعرضون للبيع إوز مذبوح- شرح أحدهم.

نلتفت إلى اليمين. نرى يانه تم تثبيت إشارات في طريقنا تدل على مجرى الملاحة. لا يبارح ربان الباخرة برج القيادة وظل الميكانيكي في قسم المحركات، وبدأت "بايكال" تبهر ببطء أكثر كأنها تتلمس طريقها. الحذر الشديد مطلوب هنا لأن من السهل جدا أن تجرح الباخرة. إنها الآن تبهر بسرعة 12 ونصف عقدة وأحيانا تضطر للسير بسرعة 14 عقدة ومررنا بلحظة شعرنا وكأنها تتمايل وتزحف على الرمل. ها هو مجرى الملاحة الضحل والصورة الفريدة التي يُظهرها لنا مضيق (التار) وشواطئ (ساخالين) التي كانت سببا رئيسا جعل الأوروبيين يسمون (ساخالين) شبه جزيرة. ففي عام 1787 وفي شهر حزيران نزل البحار الفرنسي الشهير الكونت "لا بيروز" على الشاطئ الغربي من (ساخالين) وتحدث إلى السكان الأصليين. حسب الكتابات التي تركها يمكننا الإستنتاج يانه صادف قبائل "الينو" الذين قدموا إليهم بغرض التجارة وهؤلاء قوم محنكين لهم معرفة جيدة بـ (ساخالين) وشواطئ مضيق (التار). لقد شرحوا، مستخدمين الرسم على الرمل يان الأرض التي يسكنونها هي جزيرة يفصلها المضيق عن اليابسة وعن (إيسو) اليابانية ومن ثم أكمل الإبحار نحو الشمال بمحاذاة الشاطئ الغربي وإعتقد يانه سيجد مخرجا إلى بحر (اليابان) الشمالي من بحر (أوخوتسك) مما يقلص مسافة الطريق إلى (كامتشاتكا) لكنه كلما تحرك إلى الأعلى كلما أصبح المضيق أكثر ضحالة. كان العمق يقل بقدر ثلاثة إنش بعد كل ميل بحري وإستمر في الإبحار نحو الشمال بقدر ما سمحت له مقاييس مركبه وتوقف عندما إقترب من عمق عشرة أمتار. ومع إنخفاض العمق بالتدريج وتحول الجرى إلى غير مرئي تقريبا دفعه إلى الإعتقاد يانه يبحر في مضيق وليس في خليج مما يعني يان (ساخالين) مرتبطة باليابسة عن طريق برزخ. وإستمر مرة أخرى في التواصل مع الغلياك في (دي كاستري). حين رسم لهم على الورق الجزيرة مفصولة عن اليابسة أخذ أحدهم القلم ورسم خطا يمر من خلال المضيق وشرح يان الغلياك يضطرون أحيانا في أثناء العبور من خلال هذا البرزخ إلى حمل زوارقهم وإن الاعشاب تنمو هنا أيضا- هكذا فهم "لابيروز" وهذا ما عزز إعتقاده يان (ساخالين) هي جزيرة.

.... كان من الواجب منذ زمن طويل إجراء دراسة جديدة دقيقة حول شطآن (التار) و (ساخالين) لأن

الخرائط الحالية غير مرضية، على الأقل لأن السفن الحربية والتجارية تجرح إلى الأماكن الضحلة حيث الصخور سببها هذه الخرائط بالدرجة الأولى. ويكون ربان البواخر أكثر حذرا وشكا وعصبية. لا يثق بالخريطة الرسمية ربان باخرة "بايكال" أيضا ويتبع خريطته الخاصة التي رسمها بنفسه ويعيد تصحيحها في أثناء رحلاته. ولكي لا تجرح الباخرة قرر السيد "ل". "الإبحار ليلا وقمنا بعد غياب الشمس برمي الياطر عند رأس

(جارويه). وعند رأس (جارويه)، هناك كوخ وحيد على الجبل يعيش فيه ضابط البحرية السيد "ب". الذي يقوم بتأشير المعابر البحرية ومراقبتها. وخلف الكوخ تتراءى غابات (التايغا) الكثيفة الوعرة. أرسل ربان الباخرة لحما طازجا إلى السيد "ب".. إنتهزت الفرصة وأبحرت على زورق صغير نحو الشاطئ. وجدت بدلا من رصيف للإرساء، حجارة كبيرة لزجة أضطرت إلى القفز عبرها وعلى الجبل صادفت صفوف من الأدراج الخشبية مدفونة في الأرض بشكل شاقولي تؤدي إلى الكوخ ولذلك كان عليك التسلق محكما يديك بها. ولكن.. يا للهول! في الوقت الذي كنت أتسلق فيه الجبل إلى الكوخ أحاطت بالجبل سحابة من البعوض. سحابة حقيقية إكفهر الجو بسببها وكانت تلدغي في وجهي ويدي ولم أتمكن من الدفاع عن نفسي. إعتقدت لو أنني بقيت أبات الليلة في هذا المكان، في العراء دون إشعال موقد سيؤدي بي إلى الهلاك أو على الأقل إلى الجنون.

يُقسَم الكوخ إلى نصفين بأعشاب مجففة. إلى اليسار يعيش البحارة وعلى اليمين الضابط وعائلته. لم يكن صاحب البيت موجودا. إلتقيت بامرأة نبيهة، ترتدي زيا جميلا وهي زوجته بالإضافة إلى إبنتيه اللتين قرصهما البعوض. كانت جدران الغرف كلها مغطاة بجذوع الشوح الخضراء والنوافذ بالشاش وتفوح رائحة الدخان، ولكن البعوض يحوم بالرغم من ذلك في الجو ويقرص الفتاتين المسكينتين. كانت فرش البيت متواضعة كما في المعسكرات، ولكن تشعر إن في الآثاث شئ ما لطيف ومذوق. وهناك لوحات معلقة على الجدران ولوحة بقلم الرصاص لرأس امرأة. إتضح لي إن السيد "ب". فنان.

-هل تروق لكم الحياة هنا؟- سألت المرأة.

-الوضع جيد لولا البعوض.

لم تفرح باللحم الطازج، وحسب قولها إعتادت مع أطفالها على اللحم المملح منذ زمن بعيد ولا يحبون اللحم الطازج.

-مع ذلك قمنا البارحة بسلق سمك بحري.- أضافت المرأة.

البحار العابس الذي رافقني إلى زورقي قال متنهدا كإنه حنَّ أي سؤال أود طرحه:

-لا أحد يأتي إلى هنا بطيبة خاطر!.

في اليوم التالي واصلنا رحلتنا في الصباح الباكر حيث كان الطقس هادئا ودافئا. الشاطئ التتاري كثير الجبال والقمم وسفوحه حادة وهي مغطاة بطبقة خفيفة من السديم الأزرق: هذا دخان حرائق الغابات البعيدة. الدخان الذي يصبح كثيفا جدا، كما قيل لي يُشكل خطرا على البحارة ليس أقل من الضباب. لو إن طائرا حلق مباشرة من البحر من خلال الجبال فإنه لن يصادف على الأغلب بيتا واحدا أو كائن حي على مسافة خمسمائة كيلومتر أو أكثر... أخضوضر الشاطئ بفرح بفعل أشعة الشمس وبدا كأنه بغنى عن الإنسان. في الساعة السادسة كنا في أضيق منطقة من المضيق بين رأسي (بوغوي) و(لازاريف) ورأيت كلا الشاطئين قريبين جدا وفي الثامنة أبحرنا بالقرب من (قلنسوة نيفيلسكي)-هكذا يُسمى الجبل بسبب قمته الحذاء الشبيه

بالقلنسوة. جاء الصباح ساطعا ومتأللاً وإزدادت النشوة التي غمرتني أكثر بسبب مشاعري العميقة من رؤية هذه الشطآن. في الساعة الثانية دخلنا خليج (دي كاستري). هذا المكان الوحيد الذي تتمكن فيه السفن التي تعبر المحيط الالتجاء إليه في أثناء هبوب العواصف ولولاه لكان الإبحار قرب شواطئ (ساخالين) غير المضيافة مستحيلاً. أضف إلى ذلك هناك مقولة تؤكد ذلك وهي: "الهروب إلى دي كاستري". الخليج هنا رائع كإن الطبيعة خلقتة حسب الطلب والخليج كان على شكل بركة دائرية قطرها ثلاثة كيلومترات ذات شطآن مرتفعة تمنع عبور الرياح ولها مخرجاً ضيقاً إلى البحر. يبدو الخليج من حيث الشكل الخارجي مثالياً بسبب الانطباعات الأولى فقط مع الآسف: يُغطى الخليج بالجليد مدة سبعة أشهر في السنة وهو غير محمي بشكل جيد من الرياح الشرقية وهو قليل العمق مما يدفع البواخر إلى رمي الياطر على بعد كيلومترين من الشاطئ. المخرج إلى البحر تحميه ثلاثة جزر أو على الأصح ثلاثة صخور بحرية تكسب الخليج جمالاً مميزاً. إحدى هذه الصخور تسمى (أوستريتش)("الحار") بسبب كثرة الحار كبيرة الحجم في أعماقه.

على الشاطئ عدة بيوت صغيرة وكنيسة. هذا هو موقع (الكسندروفسك). هنا يعيش قائد الموقع ومساعدته وموظفي البريد. أحد الموظفين المحليين الذين قدموا إلينا لتناول طعام الغداء على الباخرة كان رجلاً مملاً وثقيل الظل تحدث كثيراً في فترة الغداء وشرب كثيراً وألقى نكتة قديمة حول الإوزات التي أفرطت في أكل حبات التوت الممزوجة بالكحول فشملت واعتقد الناس بأننا نفقت فتم نتف ريشها ومن ثم رميها بعيداً وحين إستفاقت من السكر عادت الإوزات عارية إلى البيت. عندما روى الموظف قصته أقسم بأن الحادثة جرت في (دي كاستري) بالقرب من بيته. لا يوجد قس هنا في الكنيسة، وإذا لزم الأمر يأتي من مدينة (مارينسك). الطقس الجميل نادر جداً هنا كما في (نيقولاييفسك) ويقال بأن الربيع الفائت شهد قدوم بعثة سير أعماق البحر لكن الطقس كان مشمساً لمدة ثلاثة أيام فقط طيلة شهر آيار! تفضل ومارس عملك دون شمس!!!...

إلتقينا في جولتنا البحرية بالسفن الحربية "بوبر" و"تونغوس" وبمدمرة أيضاً. أتذكر أيضاً حادثة أخرى: ما إن ألقينا الياطر حتى أظلمت السماء وبدأت العواصف الرعدية وإكتسبت المياه لوناً أخضرنا ناصعاً غير عادي. كان على الـ"بايكال" أن تفرغ حمولتها الحكومية التي بلغ وزنها ستمائة وأربعون طناً ولذلك قضينا الليلة في (دي كاستري). ولكي يمر الوقت بيسر شرعت مع الميكانيكي بصيد السمك على سطح الباخرة وإصطدنا عدد كبير منها لا مثيل لها في (البحر الاسود) وبحر (الازوف)، بينها السمك المفلطح أيضاً.

تُفرّغ البواخر هنا طويلاً وبشكل ممل يثير الأعصاب ومع ذلك هذا هو الواقع الحزن لموانئنا الشرقية. يتم الإفراغ في (دي كاستري) بإستخدام الحاويات العائمة التي لا يمكن إرسالها على الشاطئ إلا في حالات المد ولذلك تجنح غالباً إلى الأماكن الضحلة مما يدفع البواخر إلى الرسو طويلاً لتُفرّغ عدة مئات من أكياس الطحين في أثناء حالات المد والجزر. الفوضى في (نيقولاييفسك) أكثر: شاهدت هنا وأنا أقف على سطح الباخرة "بايكال" كيف تقوم باخرة القطر بجر حاوية عائمة كبيرة وعلى ظهرها مائتا جندي وفقدت جبل

القطر. جر تيار البحر الحاوية بشكل مستقيم إلى سلاسل المرسى لمركبة شراعية وقفت على مسافة غير بعيدة عنا- ترقبنا متسمرين أن تقوم بعد لحظات السلاسل بتقطيع الحاوية ولكن لحسن الحظ استطاع الناس الطيبين في الوقت المناسب خطف حبل المرسى وأصاب الجنود موجة من الهلع فحسب.

(*)- نُشرت كتاباته عن "جزيرة (ساخالين)" من عام 1891 ولغاية عام 1894، في مجلة "روسكايا ميسل" (الفكر الروسي)، الأعداد: 6، 7، 10، 11، 12، 2، 3، 5، باسم "أ. تشيخوف".

- (1)- الفرستا تعادل 1060 متر تقريبا (المترجم).
- (2)- "نيفيلسكي غينادي ايفانوفيتس" (1813-1876) -أدميرال روسي، رئيس بعثة (آمور) الإستكشافية إفتيس تشيخوف مقاطع كثيرة من كتبه وخاصة كتابه : "مآثر ضباط البحرية الروس في الشرق الأقصى" (دار النشر).
- (3)- "الغليك" و"الآينو" هم السكان الاصليون لـ(ساخالين) وجزر(الكوريل)(المترجم).
- (4)-مقاطعة في جنوب الأرجنتين-المترجم).
- (5)-على بواخر "آمور" و"بايكال" يتم ضم الموقوفين على سطح الباخرة إلى مسافري الدرجة الثالثة. في إحدى المرات صعدت لأتجول قليلا في الصباح الباكر فوجدت الجنود والنساء وإثنان صينيان والموقوفين في أصفادهم ينامون نوما عميقا محتضنين بعضهم البعض وغطاهم الندى وكان الجو باردا وكان الحارس المرافق بينهم ضاغطا بكلتا يديه على سلاحه وهو نائم أيضا(تشيخوف).
- (6)-نوع من الاعشاب(المترجم).
- (7)-كان بإمكان...عطيل..التحدث عن...الخليجان صعبة المنال". يورد "تشيخوف" هنا جملة من مسرحية شكسبير التراجيدية.(دار النشر).

الحياة رائعة(*)

(إلى الراغبين في الانتحار)

إن الحياة أمر مقيت جدا، لكن ليس من الصعب أبدا جعلها رائعة. من أجل تحقيق ذلك ليس كاف، ربح مائتي ألف روبل أو نيل وسام النسر الأبيض أو الزواج من امرأة جميلة وأن يذاع صيتك كرجل سوي- إن جميع هذه المنافع قابلة للإضمحلال ويمكن تملكها بالعادة. لكي تشعر بالسعادة في نفسك باستمرار، حتى في دقائق الفجيرة والحزن يجب عليك أن تكون:

آ-قادرا على التمتع بالحاضر، و ب-الإبتهاج بحقيقة إن الأمور كان بإمكانها أن تكون "أسوأ من ذلك". وهذا ليس صعبا:

إذا اشتعلت عيدان الثقاب في جييك فإبتهج وإحمد رب السماء على إنه لا يوجد في جييك مخزن للبارود. عندما يزورك أرباؤك في بيتك الريفى فلا تمتعض وإهتف محتفلا: "أمر رائع لإن هؤلاء ليسو من الشرطة!".

إذا أصيب إصبعك بشظية فإفرح لإنها "لم تصب عينيك!".

إذا كانت زوجتك وشقيقتها يعزفن مقطوعة موسيقية، لا تغضب و إنما إفرح لإنك لا تستمع إلى نباح ابن آوى أو تشاهد حفلة للقطة.

إفرح لإنك لست حدوة حصان ولا بكتريا "الفرييون" ولست دودة المعدة ولا خنزير أو حمار أو دب يقوده الغجر ولست من البق... إفرح لإنك لست أعرجا أو أعمى أو أصم أو أبكم أو مصاب بالكوليرا... إفرح لإنك لست جالسا في هذه اللحظة في قفص الإتهام و لا ترى أمامك الشخص الذي منحك سلفة وإفرح لإنك لا تتحدث بشأن قبض أتعابك مع وجه غليظ.

إذا كنت تعيش بالقرب من بيت خالتك(1)، أليس بإمكانك أن تكون سعيدا بمجرد التفكير بإنك لست داخل ذلك البيت؟!.

إذا كان يؤلمك ضرر واحد فإبتهج لإن الأضراس الأخرى بخير.

إفرح لإنه لا يمكنك قراءة "غراجدانين" (2) و لا تجلس على برميل برازي وإنك لست متزوجا من ثلاث نساء في آن معا...

إذا قادوك إلى مخفر الشرطة فإقفز من الفرحة لأنهم لا يقودونك إلى نار جهنم.

إذا قاموا بجلدك بعضا من شجرة البتولا، فهز رجلك و إهتف: "أنا سعيد لأنهم لا يجلدونني بعشب القراص!".

إذا خانتك زوجتك فإفرح لإنها خانتك أنت و لم تخن الوطن!.

و إلخ... إسمع نصيحتي أيها الإنسان، عندئذ ستكون مبتهجا دائما في حياتك!!.

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1885، في مجلة "أسكولكي" (شطايا) الساخرة، العدد 17 بتوقيع: "رجل من دون طحال".

1- يقصد بذلك السجن.

2- "غراجدانين" (المواطن): -مجلة دورية سياسية كانت تصدر في روسيا في الفترة من عام 1872 و لغاية 1914.

النصاب(*)

(نكتة قديمة جدا)

في زمن ما، في إنكلترا، كان المجرمون المحكومين بالإعدام يتمتعون بحق بيع جثثهم وهم مازالوا أحياء إلى أطباء التشريح وعلماء الفيزيولوجيا. وكانت المبالغ المدفوعة لقاء ذلك تُعطى لعائلاتهم أو يبددونها في شراء الكحول. أحد هؤلاء ممن إرتكبوا جرما شنيعا، دعا طبيبا كبيرا لزيارته وبعد أن ربح المفاصلة، باعه جثته بمبلغ جنيهين. وعندما إستلم النقود، بدأ يقهقه فجأة...

-لماذا تضحك؟- سألّه الطبيب مندهشا.

-لقد اشتريتني كما يُشترى شخصا حُكم عليه بالشنق- قال ذلك مقهقهّا- لكني خدعتك! سيتم حرقني!!!..

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1885، في مجلة "أسكولكي" (شظايا) الساخرة، العدد 25، باسمه المستعار: "رجل من دون طحال".

مُعَكَّر المَراج

كان "سيميون إيليتش براتشكين"، رئيس مخفر الشرطة، يخطو في غرفته من ركن إلى آخر محاولاً كتمان مشاعره الضجرة في صدره. لقد مر البارحة لأمر ما على قائد حامية الجيش وجلس على نحو غير منتظر يلعب لعبة الورق وخسر ثمانية روبلات. المبلغ ضئيل و تافه لكن عفريت البخل والطمع كان يهمس في إذن رئيس المخفر و يؤنبه على التبذير.

-ثمانية روبلات!-ياله من مبلغ بسيط!-حاول "براتشكين" التغلب على ذلك العفريت في داخله-يخسر الناس مبالغ أكبر ولا شيء في ذلك. ناهيك عن إن النقود تأتي وتروح...لو ذهبت إلى السوق أو إلى حانة "ريلوف" لصرفت ثمانية روبلات أو أكثر من ذلك!.

- "الشتاء...الفلاح...مُحتفلاً... " - كان "فانيا"، ابن رئيس المخفر يستظهر عن ظهر قلب وعلى وتيرة واحدة دروسه في الغرفة المجاورة. - "الفلاح...مُحتفلاً، يجدد الدرب...".

-نعم، كان بالإمكان إسترداد المبلغ الذي خسرتة... من الذي "مُحتفلاً"؟

- "الفلاح...مُحتفلاً، يجدد الدرب...يجدد..."

- "مُحتفلاً"-تابع "براتشكين" التفكير-لو تم صفع الفلاح عشر صفعات حادة لما إستطاع أن يحتفل. بماذا يحتفل؟ الأجدى لو أنه دفع الضرائب بانتظام... ثمانية روبلات! يا له من مبلغ تافه! هذا ليس مبلغ ثمانية آلاف. بالإمكان تعويض خسارتي دائماً...

-كان جواده يشم الثلج...يشم الثلج، يمشي خبيبا كيف ما كان...".

-ينقصنا أن ينطلق كالبرق! ياله من جواد! قل لي من فضلك: جواد أجرب وسيبقى أجربا...هؤلاء الأغبياء قادرين وهم سكارى على حث الجياد على السرعة ومن ثم تجدهم يسقطون في فتحة الجليد أو في واد وعندئذ عليّ تدبر أمرهم...جرب وسابق الريح سألقنك درسا لن تنساه لمدة خمس سنوات!...لماذا لعبت بورقة صغيرة؟ لو إني لعبت بورقة الآس السبائي لما فقدت نقطتين...

- "رسن طري...تطير العربة هائجة بقوة، رسن طري..."

- "هائجة...رسن هائجة...رسن"...ينطقون بهذه الترهات !كيف يسمحون بكتابة مثل هذه الترهات.

إستغفر الله! لقد فعلت ورقة العشرة فعلتها. لقد دسها لي إبليس في وقت غير مناسب!

- "هاهو الغلام يركض...الغلام، حمل كلبه على المزلة...حمل..."

-مادام يركض ويلهو، معنى ذلك إنه أكل إلى حد الشبع ولو إن والديه عاقلان لأشغلاه بعمل نافع وبدلاً من أن يحمل الكلب، كان عليه تقطيع الحطب أو قراءة الكتاب المقدس...و يربون الكلاب أيضاً!...المسعورة لا يمكن المرور أو العبور من أمامها!...عليّ أن لا أظل جالسا بعد العشاء. علي تناول العشاء والذهاب... - "إنه يتألم ويضحك، وأمه تُهدده...و أمه تُهدده من النافذة..."

-تهدده، تهدده...تتكاسل عن الخروج ومعاقبته...عليها أن تصفحه: طاخ..طاخ ، هذا أفضل من أن تهدده بأصابعها...وإلا ستراه أصبح سكيراً...من الذي كتب هذا؟-سأل "براتشكين" بصوت عال.
-"بوشكين" (1) يا أبي.
-"بوشكين"؟ إحم!...أحد ما غريب الأطوار. يكتبون ويكتبون ولا يفقهون ما كتبوه. الكتابة من أجل الكتابة فقط.
-يا أبي، لقد جلبوا الطحين!-صرخ "فانيا".
-إستلموه!
و لكن الطحين أيضا لم يُفرح "براتشكين". كلما حاول أن يُلهي نفسه، كلما ازداد شعوره بالخسارة. لقد حزن على الثمانية روبلات كانه فقد بالفعل ثمانية آلاف. عندما إنتهى "فانيا" من إستظهار دروسه وسكت، وقف "براتشكين" أمام النافذة كئيبا يحدق بعينيه الحزبتين في كومة الثلج، إلا إن منظر كومة الثلج زاد من آلام قلبه. لقد ذكرّه ذلك بزيارته ليلة البارحة لقائد حامية الجيش مما زاد من حنقه وبلغت مصيبتة حدا كان لا بد من صب جام غضبه على شيء ما. لم يعد يُطبق التحمل.
-"فانيا"!-صرخ "براتشكين"-تعال إلى هنا كي أجلدك لأنك هشمت البارحة زجاج النافذة.

(*)-نُشرت لأول مرة عام 1884، في مجلة: "أسكولكي" (شظايا) الساخرة، العدد 52 بتوقيع: "أ. تشيخونتي".

(1)-"الكسندر بوشكين": شاعر روسيا العظيم (1799-1837).

مشاعر حادة(*)

منذ وقت ليس ببعيد، تُرك القضاة الخلفون بدائرة قضاء (موسكو) في المحكمة لقضاء ليلتهم هناك. تطرقوا، قبل أن يخلدوا للنوم إلى الحديث عن المشاعر الحادة. دفعهم إلى ذلك تذكّره شاهدًا صار يتأتى وإبيض شعره -على حد زعمهم في لحظة رعب. قرر الخلفون بأن على كل واحد منهم نبش ذاكرته وسرد حكاية ما قبل أن يناموا. حياة الإنسان قصيرة ولكن، رغم ذلك، لا يوجد شخص بإمكانه التبحر بأنه لم يمر بلحظات عصبية في الماضي. تحدث أحد الخلفين كيف كان يغرق وآخر كيف قام ليلاً بتسميم طفله، فلذة كبده حين أعطاه ملح الكبريت بدلاً من الصودا ناهيك عن إنه يسكن في منطقة لا تجد فيها طبيباً أو صيدلي. تعافى الطفل لكن الأب كاد أن يفقد عقله. ووصف ثالث وهو رجل كهل، معتل الصحة، كيف حاول الانتحار مرتين: أطلق النار على نفسه في المرة الأولى وفي المرة الثانية رمى بنفسه تحت عجلات القطار.

أما الرابع، وهو رجل قصير القامة، بدين وأنيق الشكل فروى ما يلي:
"لم أبلغ وقتئذ الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين بعد عندما وقعت في حب زوجتي الحالية و طلبت الزواج منها..."

كنت سأقوم الآن وبكل سرور باللطم على وجهي بسبب الزواج المبكر، لكن حينئذ، لا أدري ما الذي كان سيحدث لي لو إن "ناتاشا" رفضتني. كان حبا حقيقيا جدا كما يصور في الروايات. حب جنوبي للغاية وإلخ.. كانت السعادة تغمرني ولا مهرب منها. تضايق مني والدي وأصدقائي و الخدم وأنا أحدثهم باستمرار عن عشقي الحار. إن الأشخاص السعداء هم أكثر الناس مللا و أكثرهم إزعاجا للآخرين. كنت أزعجهم بشكل فظيع إلى حد أحس فيه إلى يومنا هذا بالخجل...
كان من بين زملائي حينئذ محام مبتدئ وهو الآن معروف على مستوى روسيا كلها، أما وقتئذ فكان طري العود، فقير الحال ومغمورا إلى حد كان بإمكانك تجاهله وعدم رفع قبعتك عند لقياه. حين كنت أزوره كنا نتفلسف ونحن ممددين على الآرائك.

في إحدى المرات بينما كنت مستلقيا عنده على الأريكة أتحدث عن إن مهنة المحاماة من أكثر المهن الغير محمودة، رغبت في أن أبرهن إن المحكمة، بعد أن تنتهي من سماع أقوال الشهود، بإمكانها الإستغناء وبسهولة عن النائب العام وهيئة الدفاع لأن كلاهما لا يفيدان و يزعجان فحسب. إذا إعتبر القاضي الخلف، الناضج والمعافى ذهنيا وروحيا أن هذا السقف أبيض وإن "إيفانوف" مذنب فإن محاولة تغيير هذه القناعة والتشكيك فيها لن يجدي نفعا حتى و لو قام بذلك "ديموسفين"⁽¹⁾. من يستطيع إقناعي بأن لي شارب أحمر إذا كنت أعلم بأنه

أسود؟ عندما أستمع إلى محاضر قد أشعر بالتعاطف أو أبكي، لكن قناعتي المتأصلة المبنية على البديهية والحقائق لا تتبدل قطعا. أما صديقي الخامي فكان يؤكد باني لا أزال شابا ساذجا وأفنوه بترهات صبيانية. الحقيقة -حسب رأيه- أولاً: تكون أكثر وضوحا إذا بينها أناس مخلصون ومطلعون. ثانياً: إن الموهبة هي قوة عفوية كالإعصار قادرة على تحويل الصخر ذاته إلى تراب، فما بالك من قناعات البرجوازيين الصغار وتجار الدرجة الثانية. الضعف البشري في الصراع مع الموهبة مثله مثل تثبيت النظر في الشمس دون أن يرف لك جفن أو محاولة إيقاف الريح. قد يتمكن شخص ما بقوة الكلمة تحويل آلاف المتوحشين راسخي العقيدة إلى المسيحية. كان "أوديس" من أشد الناس رسوخا بمعتقداته لكنه إستسلم للبفسج والإلخ. إن التاريخ كله مبني على شواهد كهذه وقد تصادفها في كل خطوة تخطوها في الواقع. نعم، هذا شئ بديهي وإلا لما إستطاع الإنسان الذكي التفوق على الأغبياء وعديمي الموهبة. حرصت على قناعتي وتابعت إثبات حقيقة إن القناعة أقوى من أي موهبة لكن، بصراحة، لم أستطع بذاتي تحديد ماهية القناعة بالضبط وبدقة. قد يكون حديثي ذلك كان مجرد ثثرة.

-أنت على سبيل المثال...- قال الخامي -مقتنع الآن بأن خطيبتك ملاك ولا أحد في المدينة كلها أسعد منك. أما أنا فأقول لك: يكفيني عشر أو عشرون دقيقة لكي أجعلك تجلس وراء هذه الطاولة وتكتب رسالة إليها تُفسخ فيها الخطوبة.

ضحكت.

-لا تضحك، إن كلامي جدي.- قال صاحبي-إذا أردت ستصبح بعد عشرين دقيقة سعيدا بمجرد التفكير بأنك لست بحاجة إلى الزواج. يعلم الله أي موهبة لدي، كما إنك لست من الأقوياء.

-هات، جرب!-قلت له.

-كلا، لست بحاجة إلى ذلك! هذا مجرد كلام. أنت شاب خير ومن الفظاظة إقحامك في مثل هذه التجربة، كما إن مزاجي عكر.

جلسنا نتناول طعام العشاء. أغرقني النبيذ وتفكيري بحبيتي "ناتاشا" كليا بمشاعر الشباب والسعادة. سعادتي الغامرة وغير المحدودة جعلتني أتخيل إن الخامي الذي يجلس أمامي بعينه الخضراوين، شخص بائس وعديم الخبرة...

-هات، جرب!-قلت بإلحاح -هيا، أرجوك!.

هز الخامي برأسه و قطب. بدا كأنه ملّ مني.

-أعلم،- قال هو-إنك ستشكرني بعد محاولتي هذه وتناديني بالمنقذ لكن يجب أن نفكر أيضا بخطيبتك. إنما تُحبك وفسخ الخطوبة سيجعلها تكابد. يالها من خطيبة رائعة! إني أحسبك!.

تنهد الخامي وشرب النبيذ وبدأ الحديث عن روعة خطيبتي "ناتاشا". كانت لديه قدرة

عجبية على التصوير. كان بإمكانه التحدث عن أهذاب المرأة وأصابعها الرقيقة بشكل مطول. استمعت إليه بمتعة.

-صادفت في حياتي كثير من النساء-قال هو، -لكن، أقسم لك كصديق إن حبيبك "ناتاليا اندرييفنا" لؤلؤة. إنها فتاة نادرة. لديها عيوب طبعاً، إنها كثيرة حقاً إذا أردت، لكنها رغم ذلك فاتنة.

و بدأ الخامي في التحدث عن عيوب خطيبي. أعلم الآن بشكل ممتاز بأنه كان يتحدث عن النساء بشكل عام. عن مكان الضعف عامة ولكن حينئذ خيل إلي بأنه يتحدث عن "ناتاشا" فقط. كان يتعجب من أنفها الأخنس وصياحها وضحكها العالي وتصنعها، وبكل شيء لا يعجبني في خطيبي. كل هذا-برأيه-كان لطيفاً وظريفاً وفيه أنوثة. سرعان ما إنتقل، دون أن الحظ ذلك، من نغمة الإبتهاج إلى لهجة الإبوة الواعظة ومن ثم إلى نبرة إزدراء خفيفة... لم يكن رئيس المحكمة معنا ليقف الخامي الهائج عند حده ولم أنجح في التفوه بكلمة واحدة. على أية حال لم أكن أعلم بماذا أنبس!. لم يتحدث صاحبي بشيء جديد وإنما عن أشياء معروفة للجميع منذ زمن طويل ولكن السموم كانت تكمن في هالة اللعنات التي تلف كلامه وليس في ما يقوله. أي بمعنى، الله وحده يعلم ما كان ذلك!!.

إقتنعت وأنا أستمع إليه إن الكلمة الواحدة تحمل آلاف المعاني والتعابير حسب طريقة لفظها والشكل الذي يُطلب من الجملة. طبعاً، ليس بإمكانني نقل تلك النبرة إليكم ولا أي شكل آخر ولكن أقول فقط بأنني عندما كنت أستمع إلى زميلي وأنا أخطو من زاوية إلى أخرى كنت أشاطره السخط والإمتعاض والإستياء والإزدراء. لقد صدقته حتى عندما أعلن لي ودموعه تنهمر بأنني رجل عظيم وإنني أستحق مصير أفضل وإنني مقبل في المستقبل القريب على القيام بأمر مميز قد يحيل دون زواجي.

-يا صديقي!. -صاح وهو يشد على يدي-أرجوك. أتوسل إليك: توقف لأن الفرصة ما زالت مواتية. توقف. فليحفظك الله من هذا الخطأ الغريب والفادح!. صديقي، لا تدمر شبابك!. سواء صدقتموني أم لا، إلا إنني في نهاية المطاف جلست خلف الطاولة وكتبت رسالة إلى خطيبي أفسخ فيها الخطوبة. كنت أكتب وأنا أبتهج لأن الوقت كان لا يزال في صالحني لدرء الخطأ. أغلقت الرسالة وسارعت إلى الشارع برفقة الخامي لكي أسقط الرسالة في صندوق البريد.

-ممتاز!. رائع!. -أثنى عليّ بعد أن إختفت رسالتي إلى "ناتاشا" في الصندوق. أهنيك من كل قلبي. أنا سعيد من أجلك.

عندما خطينا عشرون خطوة أكمل المحامي:
-للزواج، طبعاً، جوانب جيدة. أنا على سبيل المثال من صنف أولئك الناس الذين يعتبرون
الزواج والحياة الأسرية كل شيء بالنسبة إليهم.
وبدأ بتصوير حياته كلها وتوضحت أمامي كل مساوئ حياة العزوبية والوحدة.
كان يتحدث بإنسراح عن زوجة المستقبل التي يريد لها وعن عذوبة الحياة الأسرية المألوفة
و كان يتهجج بروعة وصدق جعل اليأس يدب في كياني ونحن نقترّب من الباب.
-ما الذي تفعله بي أيها الرجل الفظيع؟! -قلت له ملتقطاً أنفاسي -لقد أهلكني! لماذا أجبرتني
على كتابة تلك الرسالة اللعينة؟ أنا أحبها، أحبها!..
بدأت أقسم بحبي وشعرت بالرعب من تصرفي الذي بدا لي وحشياً لا معنى له. ليس بالإمكان
تصور أشد من ذلك الشعور الذي إنتابني في ذلك الوقت يا سادة!..ياها من أحاسيس! ياها من
مشاعر! لو إن شخصاً طيب القلب دس في يدي مسدساً حينئذ لأفرغته في جيبني بكل سرور.
-كفى..كفى..-قال المحامي وهو يربت على كتفي وإستغرق في الضحك-كفاك بكاء!.. لن
تصل الرسالة إلى خطيبتك، فالعنوان على الظرف كتبته أنا وليس أنت. لقد كتبته بشكل لا
يفهمه أحد في مركز البريد. ليكون ذلك درساً لك ولا تناقش في أمر لا تفهمه.
أما الآن أيها السادة فليتكلم أحد منكم...
عدّل المحامي الخلف الخامس في جلسته وفتح فمه لكي يبدأ في رواية قصته لكن الساعة
دقت في منارة "سباسكي".
-الثانية عشرة ليلاً...-قال أحد الخلفين- أي صنف من المشاعر تنتاب المتهم الآن؟ ذلك
القاتل الذي سيمضي ليلته هنا في غرفة الحجز. هل هو مستلق أم جالس؟..مستيقظ طبعاً
ويستمع طوال الليل المؤرق لضربات الساعة. بماذا يفكر؟ ما هي الأحلام التي تراوده؟..
ونسي جميع الخلفين فجأة.. "المشاعر الحادة" وبدأت المعاناة التي عاشها زميلهم عندما
كتب في إحدى المرات رسالة إلى خطيبته "ناتاشا"، تافهة ومضحكة إلى حد ما وتوقفوا عن سرد حكاياتهم وبدأ
كل منهم بصمت وهدوء الإستلقاء للنوم.

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1886 في "جريدة بطرسبورغ"، العدد: 107، باسمه المستعار: "أ. تشيخونني".

(1)- "ديموسفين": وهو من أعظم خطباء الإغريق (القرن الرابع قبل الميلاد) وإشتهر بخطبه الموجهة ضد "فيليب المقدوني" الذي حاول غزو اليونان
وحدث سكان (أثينا) للدفاع عن إستقلال بلادهم. (المترجم).

حديثي مع "إديسون"

(من مراسلنا الخاص)(*)

زرت "توماس إديسون". إنه فتى لطيف ومهذب. كانت غرفه مكدسة بالتلفونات والميكروفونات والفوتوفونات (1) و ما إلى ذلك من "الفونات".

-أنا روسي!-قدمت نفسي إلى "إديسون"، -سمعت كثيرا عن مواهبك. إلا أن اختراعاتك لم تدرج بعد في مناهجنا العلمية الدراسية، لكن بالرغم من ذلك، يرد إسمك مرارا في "منوعات" الصحف!.

-أنا سعيد جدا ولكن أحذرك، إذ إنني لن أعطيك نقودا بالدين. والله، لا أستطيع!.

- وأنا لا اطلب ذلك!-. لقد إرتبكت من هذه الإهانة غير المتوقعة.

-إعذربي، لكنني قرأت وسمعت بأن الإستدانة من أي كان هي ميزة العقلية الروسية.

-عفوا، ما الذي تقوله!!.

جلسنا وثرثرنا.

-هل إخترعت شيء ما حسن؟-سألته- لعلك إخترعت، والله يعلم، كثير من الأشياء! مثلا ما هذه التحفة؟!

-هذه"ماكولات فون"...تضع أمام هذه الشجرة فحم ملتهب... و تلف هذا البرغي وتضغط على هذه القطعة وتوصل التيار الكهربائي وسترى على مسافة مائتي ميل، صورة الفحم بشكل مكبر، وبإمكانك سلق وقلي كل ما ترغب به...

-ها ها ها... هذه، قل لي: ما هذه؟.

-هذه لوازم ضرورية للسائحين، ألقت إنتباهك إليها، وقيمتها حسب عملتنا روبل واحد وبعملتكم ثلاث روبلات. لنفترض أنك غادرت روسيا إلى أمريكا وتركت زوجتك وحدها وتجولت هناك سنة وستنان وثلاث سنوات...ما الذي يضمن لك يا عزيزي بأنك لن ترغب في إنجاب طفل يحمل إسمك النبيل فيما بعد؟ عندئذ، ما عليك إلا أن تقترب من هذا السلك والقيام بحركات ما وفي اليوم الثاني ستستلم برقية من زوجتك يرد فيها: أنجبت صبيا!!.

-لــــلــــلــــل...لكن يا "إديسون إيفانيتش"، هذا يحدث عندنا بشكل أبسط من ذلك. تسافر إلى أمريكا وتترك صاحبك في البيت...لن تستلم برقية طبعاً ولكن حين تعود أدراجك إلى البيت لن تجد طفلا واحدا فقط

وإنما ثلاثة أو أربعة أطفال يستقبلونك مرددين: - مرحبا يا بابا!... يُحكى أن طبيبا سافر إلى الخارج في مهمة علمية وعندما عاد وجد في بيته تسع بنات.

-وما الذي حصل؟

-لا شيء. لقد فسّر ذلك لنفسه بشكل علمي وقال: "ظاهرة متألفة"، ضغط دموي وما إلى ذلك...

و هذا... ما هذا الجيلاتين؟.

-هذه إسطوانة لإختبار الأفكار. ما عليك إلا أن تضعها على جبين من تريد ووصل التيار، وعندئذ تجد

الأسرار قد تكشفت...

-هاااا... على أية حال، يحدث هذا في روسيا بشكل أبسط: تعبت في محتويات طاولة أحد ما وتفتح رسالة

أو رسالتين من رسائله... وستجد كل شيء مكشوفاً!! الـ"بيشوييزم" (2) دارج جدا لدينا اليوم!..

تعرفت، بهذا الشكل على كافة الاختراعات. لقد أعجب "إديسون" بمديحي إلى درجة لم يحتمل فيها الصبر

و قال لي عند الوداع:

- فليكن ما يكون. يسامحك الله! خُذ هذا القرض.!!.

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1885 في مجلة "أسكولكي" (شظايا) "الساحرة"، العدد 49 مذيلة باسمه المستعار: "رجل من دون طحال".

1- "فوتوفون": جهاز إرسال الأصوات عن بعد بمساعدة الضوء و هو من إختراع غرا هام بيل عام 1880، ولكن لم يتم إستخدامه فيما بعد.

2- "البيشوييزم": مأخوذة من إسم عائلة "بيشوب" وهو المعروف عالميا بقراءة أفكار الغير و لقد زار روسيا عام 1885.

اللولب*)

في إحدى ليالي الخريف الكئيبة، خرج "أندريه ستيبانوفيتش بيريسولين" من المسرح، وركب العربة وبدأ يفكر بتلك المنفعة التي قد يجلبها المسرح في حال عرض مسرحيات ذات مضمون أخلاقي، وعندما مر بالقرب من الإدارة، كفّ عن التفكير بالمنافع وبدأ يتطلع باتجاه نوافذ المبنى الذي يقود دفته - حسب تعبير الشعراء والملاحين. كانت هناك نافذتان مفتوحتان في غرفة المناوبة، مضيئتان بوضوح.

"يا ترى هل مازالوا يعملون على إعداد التقرير؟" تساءل "بيريسولين" - لم يفلح أربعة حقى حتى الآن في إتهائه! سيعتقد الناس بأنني أجبرهم على العمل لغاية منتصف الليل.. سأذهب لكي أحثهم على العمل... - قف يا حوذي!

ترجل "بيريسولين" من العربة وتوجه إلى الإدارة. كان الباب الرئيس مغلقا، أما الباب الخلفي ذو المزلاج المعطوب فكان مفتوحا على مصراعيه ودخل "بيريسولين" منه وكان خلال دقيقة واحدة يقف أمام باب غرفة المناوبة. كان الباب شبه مفتوح و شاهد من خلال شق الباب أمرا غريبا جدا. جلس أربعة موظفين يلعبون الورق خلف طاولة تنيرها أضواء المصابيح وتكدست عليها أوراق التقرير الكبيرة. كانت نظراتهم مركزة، جالسون بلا حراك ووجوههم الملونة بلون المصابيح الأخضر كان يذكرنا بأقزام الحكايات أو -العياذ بالله- بمزوري العملات... وكان الغموض يخيم على الجو، أما طريقة لعبهم والمصطلحات التي يتلفظون بها فكانت تدل على إنهم يلعبون لعبة الورق التي تسمى "اللولب". إلا أن كل هذه الدلائل وما سمعه "بيريسولين" لا يمكن تسميته بلعبة "اللولب" ولا أية لعبة ورق أخرى. أمر غريب وغامض لا مثيل له... تعرف "بيريسولين" بين الموظفين على "سيرافيم زفيزدولين" و"ستيبان كولاكيفيتش" و"يريمي نيدويخوف" و"إيفان بيسولين". -كيف تلعب أيها الشيطان الهولندي!- غضب "زفيزدولين" وهو يتطلع بحق إلى شريكه في اللعب -هل يجوز اللعب هكذا؟ في يدي، يا صديقي، "دوروفيف" (1) بلحمه وشحمه و"شيليف" (2) وزوجته و"ستيوبكا يرلاكوف" (3) أيضا، أما أنت فتلعب بـ "كوفيكيين"!! (4) لقد فقدنا نقطتان! كان عليك يا رأس الفزاعة أن تلعب بـ "بوغايكين" (5)...

-لنفترض أنني لعبت مثل ما قلت؟- أجابه شريكه مكشرا - لو لعبت "بوغايكين" كان سيرد علينا بـ "إيفان اندرييتش بيريسولين" (6)

"لماذا يتلفظون بإسمي -هزّ "بيريسولين" كتفيه. -لا أفهم!"

وزع "بيسولين" الورق مرة أخرى وتابع الموظفون اللعب:

- "البنك الحكومي"...

- إثنان من فرع "وزارة المالية"...

- من دون أفضلية؟...

-لديك " من دون أفضلية ؟" ها...إدارة المقاطعة-إثنان...فليكن ما يكون وليأخذكم الشيطان! في المرة الماضية بقيت في "إدارة المعارف الوطنية" من دون نقطة، والآن سأتعثر في إدارة المقاطعة. فليكن!

-"بيضة صغيرة في إدارة المعارف الوطنية!"

" لا أفهم!"-غمغم "بيريسولين!"

-سألعب بنائب المحافظ...إلعب يا "فانيا" بواحد من مستشاري الدرجة التاسعة أو الثانية عشرة.

-لا داع للمستشارين. يكفيننا "بيريسولين"...

-لن يخيفنا صاحبك "بيريسولين"، لن يخيفنا...لدينا "رينيكوف"⁽⁷⁾. فلتبقوا من دون ثلاث نقاط! هات!

دعنا نرى زوجة "بيريسولين". لا داع لإخفاء تلك اللئيمة وراء الأكمة!.

" لقد مسوا كرامتي - فكر "بيريسولين" - لا أفهم! "

فتح "بيريسولين" الباب، رغبة منه في التخلص من حيرته، ودخل غرفة المناوبة. لو إن شيطاننا ظهر يحمل قرنين وذو ذيل أمام الموظفين ما كان سيدهشهم ويخيفهم كما أخافهم وأدهشهم مديريهم. لو إن موظف الديوان الذي توفي العام الماضي ظهر لهم وتوجه إليهم بصوت حزين وقال: " إلقوا بي أيها المذنبون إلى المكان المهيأ للنذلاء"، ولو إنه نفخ بوجوههم بهواء القبور البارد، لما إصفرت وجوههم كما إصفرت الآن بعد أن عرفوا بيريسولين. لقد سال الدم من أنف "نيدويخوف" وبدأت تنن إاذن "كولاكيفيتش" اليمنى وإرتخت تلقائيا عقدة ربطة عنقه. رمى الموظفون الورق ونهضوا ببطء وتطلع بعضهم في وجوه البعض ومن ثم تحولت نظراتهم نحو الأرض وخيم السكون على جو غرفة المناوبة...

-إنكم تكتبون التقرير بشكل رائع!- بدأ "بيريسولين".-عرفت الآن لماذا تحبون إلى هذه الدرجة كتابة التقارير...ماذا كنتم تفعلون؟.

-كنا، سيادتكم، لمدة دقيقة واحدة...-همس "زفيزدولين"- نتفحص الورق...كنا نرتاح....

إقترب "بيريسولين" من الطاولة وحرك كتفيه ببطء. لم ير أوراق لعب على الطاولة وإنما وجد صوراً عادية ألصقت على أوراق اللعب. كان هناك عدد كبير من الصور. وبعد أن تفحصها "بيريسولين" وجد صورته وصورة زوجته وعدد كبير من موظفيه وزملاءه...

-ما هذا الهراء...بالله عليكم كيف تلعبون؟.

-سيادتكم!..هذا ليس من إختراعنا...فليحفظكم الله...نحن نقلد الآخرين فقط...

-إشرح لي يا "زفيزدولين"، كيف كنتم تلعبون؟ لقد شاهدت وسمعت كل شيء. كيف قضيتهم عليّ عن طريق "رينيكوف"؟...هيا..لماذا أنت خائف؟ لن أكلك. إحك لي!.

ظل "زفيزدولين" فترة طويلة خائفا وخجلا وفي النهاية، عندما بدأ "بيريسولين" يشتط غضبا ويتذمر محمرا ونفذ صبره، جمع "زفيزدولين" أوراق اللعب ومن ثم خلطها ووضعها على الطاولة وبدأ يشرح:

- كل صورة ، سعادة المدير، مثلها مثل كل ورقة لعب لها قيمتها ومعناها.. ويتوافق عددها مع عدد أوراق اللعب وتتألف من أربعة أجناس... موظفو المجلس الحكومي، هم أوراق الكوبا. والسباقي هم موظفو إدارة المقاطعات، أما موظفو إدارة المعارف الوطنية فهم الديناري، والبستوني هم موظفو فرع البنك المركزي، ونواب المحافظ هم الآس، ورؤساء الإدارات هم الشيايب، وزوجات موظفي الدرجة الرابعة والخامسة هم البنات. والشباب هم رؤساء لجان المستشارين، ومستشاري الدرجة السابعة هم الورقة رقم عشرة وإلخ... أنا مثلاً-هذه ورقتي-الورقة رقم ثلاثة لأنني الآن موظف من الدرجة الثانية عشرة... بالله عليك! ...معنى ذلك أنا الآس؟.

-آس الديناري، أما زوجة سعادتكم فهي بنت الديناري...

-أوه! شئ ظريف...هيا...هيا نلعب! لنر...

خلع "بيريسولين" معطفه وابتسم بريية وجلس خلف الطاولة. جلس بأمر منه الموظفين أيضا وبدأ اللعب...

أصيب الحارس "ناظار" الذي قدم في الساعة السابعة صباحا لكي ينظف غرفة المناوبة بصدمة. فالمنظر الذي رآه و هو يدخل ويده المكنسة كان مذهشا إلى درجة بات يتذكره عندما ينطرح أرضا بعد أن يشرب إلى حد الثمالة ويفقد ذاكرته من جراء ذلك. كان "بيريسولين" شاحبا وناعس العينين وأشعث الشعر يقف أمام "نيدويخوف" ماسكا بزر قميصه ويقول:

-إفهمني في نهاية المطاف . لا يجوز لعب "شيبيليف" إذ كنت تعلم إن في يدي صورتي أنا، وعند "زفيزدولين" "رينيكوف" وزوجته وثلاثة من معلمي المدرسة وزوجتي بينهم، وعند "نيدويخوف" إدارة البنك وثلاثة من صغار موظفي إدارة المقاطعات! كان عليك لعب "كريشكين" (8). لا تهتم بلعبهم وهم يلعبون الإدارة المالية! إنهم يدرون ما يفعلون!.

-أنا، سعادتكم، لعبت بموظف الدرجة التاسعة لأنني كنت أعتقد إن لديهم مستشار الدرجة الخامسة. -آه يا روحي، لا يمكن التفكير هكذا! هذا لا يسمى لعب الورق. هكذا يلعب الإسكافي فقط. فكر بنفسك!...عندما لعب "كولاكيفيتش" بموظف الدرجة السابعة، كان عليك رمي "إيفان ايفانوفيتش" غرينلادسكي" (9) كونك تعلم إن لديه "ناتاليا ديميترييفنا" و"يغور يغوروفيتش"...لقد أفسدت كل شيء. سأثبت لك ذلك الآن! إجلسوا أيها السادة، سنلعب شوطا آخر. جلس الموظفون، بعد أن طردوا "ناظار المندهبش" وأكملوا اللعب.

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1884 في مجلة: "أسكولكي" (شظايا) الساخرة، العدد 39 باسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

1-2-3-4-5-6-7-8-9: أسماء موظفين من مختلف الدرجات الوظيفية.

سمة العصر(*)

جلسا في غرفة الضيوف التي يغطي جدرانها ورق أزرق فاتح ، يعترفان بجهما .
ركع شاب ذي طلعة بهية على ركبة واحدة أمام فتاة شابة وبدأ يُقسم لها :
- لا أستطيع العيش من دونك يا عزيزتي! أقسم لك!- قال وهو يتنفس بصعوبة-منذ أن رأيتك فقدت
الراحة! عزيزتي ، قولي لي ...قولي ...نعم أم لا ؟ .
فتحت الفتاة فمها الصغير لكي تجيب، لكن أخاها مد رأسه في تلك اللحظة من خلف الباب .
- تعالي يا "ليلي" دقيقة واحدة!-قال الأخ .
-ما الذي تريده؟-قالت "ليلي" خارجة لأخيها .
-إعذريني عزيزتي على الإزعاج، لكن...أنا أخاك ومن واجبي المقدس أن أحرص عليك...كوني حذرة مع
هذا السيد واضبطي لسانك ولا تتسرعي في قول شيء .
-لكنه يطلب يدي!
-هذا شأنك...إعترفي بحبك وتزوجي منه ولكن، بالله عليك كوني حذرة أكثر...أنا أعرف هذا المخلوق
إنه نذل معروف! سيهرع فورا ويكتب تقريراً بذلك...
-شكرا يا "ماكس"...لم أكن أعلم ذلك!
عادت الفتاة إلى غرفة الضيوف وردت على الشاب بكلمة "نعم" وبادلته القبلات والعناق والقسم
ولكنها كانت حذرة: تحدثت إليه عن الحب فقط...

(*)- نُشرت عام 1883 في مجلة: "أسكولكي" (شظايا) الساهرة، العدد 43 باسمه المستعار: "رجل من دون طحال".

نصائح طبية

لمعالجة مرض الأنفلونزا، يفيد جدا منقوع "ترين-ترافا"⁽¹⁾. يجب شربه على الريق أيام السبت. بالإمكان إيقاف دوران الرأس بهذه الطريقة: خذ حبلين وإربط الإذن اليمنى إلى أحد الجدران واليسرى إلى الجدار الآخر المقابل وبهذا الشكل يتوقف رأسك عن الدوران. حاول أن تجبر نفسك على التقيؤ حين تصاب بالتسمم بالزرنيخ ويفيد في هذه الحالة تشمم مأكولات تم شراءها من سوق "أوخوتني رياد"⁽²⁾. في حالات السعال الشديد حاول أن لا تسعل أبدا لمدة ثلاثة أو أربعة أيام عندئذ سيختفي تماما المرض تلقائيا.

(*) - نُشرت لأول مرة عام 1885 في مجلة: "بوديلنيك" (المنبه) الساخرة، العدد 39 باسمه المستعار: "دكتور من دون مرضى".

1- "ترين-ترافا": ومعناه المشي على العشب، لكن يقصد بها مزاولة الأعمال التافهة وغير الجدية.

2- "أوخوتني رياد": وهو سوق شعبي في مركز (موسكو) بالقرب من "الكريميلين" قبل ثورة أكتوبر 1917.

في عربة القطار

(مناوشات كلامية)

-هل ترغب سيجارا يا جار؟

- "ميرسي"... سيجار رائع! بكم العلبة منها؟.

-في الحقيقة لا أعلم، لكن أعتقد إنها من النوع الفاخر... إنها من نوع "هافانا"! بعد زجاجة "ديبردي"، التي شربتها قبل قليل في الخطة وبعد سمك السنمورة، لا بأس من تدخين مثل هذا السيجار! بف. بف.

-ياله من قرط كبير لديك!

-نعم... ثلاثمائة روبل! أما الآن، فلا بأس من شرب نبيذ الـ "راين" بعد هذا السيجار... أعتقد إن اسمه "شلوس-يوغنسبورغ" رقم 85 و 1\2، بقيمة عشرة روبلات... ها؟ أم الأحمر... من بين الأحمر أشرب "كلودي فوجوفيه سيب" أو على الأغلب "كلودي روا كورتون"... على أية حال لو أردت شرب نبيذ الـ "بورغون" فعليك شرب "شامبرتين" 38 و 3\4 وهو النبيذ الأكثر جودة في الـ "بورغون"...
-إعذرني من فضلك على هذا السؤال غير المتواضع: لعلك من ملاكي الأراضي المحليين أو... صاحب بنك؟.

-كلا، لا.. أي بنك؟! أنا مراقب في مستودع جمارك (W)...

* * *

- تقرأ زوجتي "نوفوستي" و "نوفيه فريميا" لكنني أفضل صحف (موسكو). أقرأ الجرائد كل صباح وفي المساء أطلب من إحدى بناتي قراءة "روسكايا ستارينا" أو "فيسنيك يوروي" بصوت مسموع. أعترف بإنني لست متحمسا للمجلات السميكة إذ إنني أعطيها لأصحابي لقراءتها وأنا أتعاطى أكثر مع المجلات المصورة... أقرأ "نيفا" و... "العالمية" (1)... و... طبعا الساخرة منها...
-هل أنت مشترك، يا ترى في كل هذه الصحف والمجلات؟ يبدو إن لديك مكتبة لبيع الكتب؟!
-كلا. لا، أنا موظف في دائرة البريد...

* * *

—طبعاً لا يمكن مقارنة خطوط السكك الحديدية بطرق المواصلات التي تسلكها الخيول. لكن الخيول يا عزيزي شيء جميل... عليك أن تشد رحال خمسة أو ستة "ترويكات" (2) وتُجلس عليها كثير من النساء وآه منكم يا جيادي، طيري كالصقور. تجري ولا ترى سوى قدح الشرارات. تقطع مسافة ثلاثين فرستا وتعود أدراجك... لا يمكن التمتع بمسرة أفضل منها وخاصة في الشتاء... أتدري، حدث ذات مرة... أمرت الرجال بشد رحال عشر "ترويكات"... كان لدي ضيوف...
—أنا آسف... أغلب الظن لديك مزرعة لتربية الخيول؟.
—كلا. أنا رئيس فرقة إطفاء الحرائق...

* * *

—أنا لست جشعاً ولا أحب النقود... تفو على النقود!... عانيت الكثير بسببها لكني قلت وسأقول :
النقود شيء رائع! هل توجد متعة ألد من أن تقف حيناً، وجهها لوجه أمام رجل ساذج وفجأة تشعر في كفيك كما يقال، بحرارة الورق... تحس بالشرارة تستشري في عروقك عندما تلمس محفظة النقود في قبضتك...
—أنت، على ما يبدو دكتور؟.
—كلا، فليحفظك الله! أنا شرطي...

* * *

—يا جابي أين أنا الآن؟ في أي مجتمع؟! في أي قرن أعيش؟!
—أنت بالذات، من أنت؟
—أنا "يغوروف"، معلم أحذية، إسكافي...

* * *

—مهما قيل، ألا أن العمل الأدبي عبء شاق (يتعهد بهيبة) كان محققا collega (3) "نكراسوف" حين قال
يان هناك شيء ما مُهلك في قدرنا (4)... نحن نتقاضى في الحقيقة مبالغ طائلة ويتعرف علينا الناس في كل مكان... الشهرة هي قسمتنا، لكن... كل هذا بمرجة... الشهرة حسب قول أحد زملائي هي رقعة ناصعة في سترة الأعمى القذرة... (5). هذا العمل شاق ومرهق إلى درجة، صدقني، تمتلكني الرغبة في أن أفايض الشهرة والنقود بقسمة الفلاح...
—عفوا أين تنشر كتاباتك؟.

-أكتب في جريدة "لوتش" عن القضية اليهودية...

* * *

-كان زوجي يخرج كل يوم سبت إلى الوزير وأبقى وحيدة... فجأة وفي يوم سبت ما دخل عليّ بعض الناس من طرف "الكونت فيكين" يسألون عن زوجي. "نريده مهما كان، حتى ولو تنبشيه من الأرض، هات زوجك!" يا لهم!، والله... قلت لهم كيف أعرّ على زوجي؟ إنه الآن عند الوزير وسيذهب من هناك إلى الأميرة "خرونسكايا-زايباتايا"...

-مفهوم... إسمحي لي يا سيدة، في أية وزارة يعمل زوجك؟.

-إنه معلم حلاقة... إنه حلاق...

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1885 في مجلة: "أسكولكي" (شطايا)، العدد 30، باسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

1- "فسميرنايا": هي مجلة دولية مصورة، كانت تصدر في بطرسبورغ عام 1869. (المترجم).

2- "ترويكّا": هي عربية روسية تجرّها ثلاثة جياد. (المترجم).

3- collega: وتعني: الزميل (المترجم).

4-... قال الشاعر الروسي الشهير "تكراسوف": إن شيء ما مهلك يرافق قدرنا-هذا مقطع من قصيدة "في المشفى" كتبها عام 1855..

5- "الشهرة.... هي رقعة ناصعة في سترة الأعمى القدرة...". هذه العبارة مأخوذة من قصيدة الشاعر الروسي العظيم "أ.س. بوشكين" "حديث الشاعر و بائع الكتب":

ما هي الشهرة؟ رقعة ناصعة

في سترة المــــغني العتيقة

البدين والنحيف(*)

إلتقى صديقان في محطة سكك حديد (نيكولايف) - الأول بدين والثاني نحيف. كان البدين قد فرغ للتو من تناول وجبة الغداء في المحطة. كانت شفتاه الممرغتين بطبقة رقيقة من الزبدة تلمعان كالكرز الناضج. كانت تفوح منه رائحة نبيذ الخيريس وعصير زهرة البرتقال. أما النحيف فكان قد ترجل للتو من القطار حاملا الحقائب والجعب والكراتين. كانت تفوح منه رائحة لحم الخنزير المملح وخبثارة القهوة. كانت تلوح من خلف ظهره امرأة هزيلة ذي ذقن طويلة وإبنة، طالب المرحلة الثانوية ذو القامة الطويلة والعينين الضيقتين. - "بروفيري!" - صاح البدين بعد رؤيته النحيف - هذا أنت؟ يا عزيزي! كم ربيعا مضى على فراقنا!! - يا إلهي! - إندهش النحيف - "ميشا!" صديق الطفولة! يا للصدفة!؟

تبادلا القبلات ثلاث مرات وصب كل منهما عيناه المملتين بالدموع نحو الآخر بدهشة حميمة. - يا عزيزي! - بدأ النحيف بعد تبادل القبل - لم أتوقع هذا! يا للمفاجأة! هات، تطلع نحوي جيدا! لا زلت وسيما كالسابق! نفس اللطافة والتأنق! آه يا ربي! هيا قل لي: أنت غني؟ متزوج؟ إني، كما ترى متزوج... هذه زوجتي "لويزا" من عائلة "فانتسينباخ"... وهي بروتستانتية... أما هذا فإبني "نافانائيل"، سنة ثالثة ثانوي. - يا "نافانائيل"، هذا صديق طفولتي! كنا ندرس معا في الثانوية! فكر "نافانائيل" قليلا ومن ثم رفع قبعته.

- كنا ندرس معا في الثانوية! - تابع النحيف - هل تذكر كيف كانوا يغيظونك باسم "غيروسترات" (1) بسبب حرقك الكتاب المدرسي بالسيجارة. أما أنا فكانوا ينادوني بـ "إيفيالت" (2) لأني كنت أحب النسيمة... هي... هي... كنا أطفالا! لا تخف يا "نافانيا"! إقترب منه قليلا... أما هذه، فهي زوجتي من عائلة "فانتسينباخ"... بروتستانتية.

فكر "نافانائيل" قليلا ومن ثم إختفى خلف ظهر والده. - قل لي كيف تعيش يا صديقي؟ - سأل البدين وهو يحرق في صديقه مبتهجا - أين تعمل؟ ما هي درجتك الوظيفية؟

- أعمل، يا عزيزي موظف ديوان منذ عامين ولدي وسام من الدرجة الرابعة. الراتب قليل... لكن نحمد الله! زوجتي تعطي دروسا في الموسيقى وأنا أصنع بنفسني حافظات سجائر من الخشب. حافظات ممتازة! أبيع القطعة بروبل. إذا أراد أحدهم عشرة قطع أو أكثر، فله حسومات، كما تدري. نرتزق كيف ما كان.

أتدري، كنت أعمل في الإدارة. أما الآن فتم نقلني إلى هنا موظفا من نفس الدرجة وفي نفس الهيئة... سأعمل هنا. قل لي كيف أنت؟ أصبحت على الأغلب موظفا من الدرجة السابعة؟ ها؟.

- كلا يا عزيزي، أعلى من ذلك- قال البدين- أنا الآن مستشار سري... ونلت وسام النجمة مرتين. إصفر فجأة وجه النحيف وتسمّر في مكانه، لكن سرعان ما إعوجت تقاسيم وجهه بإبتسامة عريضة وبدا كأن الشرارات بدأت تقدح من وجهه وعينيّه. راح يميل ويتقوّس ظهره وينكمش... كانت حقائبه وجعبه وكرايته تقبل أيضا وتنكمش... أصبح ذقن زوجته أكثر طولا وإستقام "نافانيل" بطول قامته وقام بزر كافة أزرار سترته...

-أنا، يا صاحب السعادة... سعيد جدا! صديق الطفولة كما يقال وفجأة أصبح من الوجهاء... هي... هي...
-هيا، كفاف!- إمتعض البدين- لماذا تكلمني على هذا النحو؟ نحن أصدقاء الطفولة- لا مكان هنا لتقديس الرتب!.

-العفو! ماذا تقولون...- ضحك النحيف وإنكمش أكثر- إن الإهتمام الكريم لسعادتكم... كالندى المنعش... هذا يا صاحب السعادة إبنني "نافانيل"... زوجتي "لويزا"، بروتستانتية، بقدر ما...
أراد البدين الإعتراض على شيء ما، لكن قدر كبير من الإجلال والعذوبة والإحترام المبالغ فيه جعل المستشار يشعر بالغثيان. أشاح بوجهه عن النحيف ومدّ له يده مصافحا ومودعا.
صافحه النحيف ضاغطا على ثلاثة من أصابعه وإنحنى بكامل جسده وضحك كالصينيين: "هي... هي... هي...".
إبتسمت زوجته وخبّط الإبن برجليه على الأرض وسقطت قبعته. لقد دُهش الثلاثة دهشة حميمة.

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1883 في مجلة "أسكولكي" (شطايا)، العدد 40، بإسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

1- "غبروسترات": وهو من مدينة (إيفيس) الإغريقية قام عام 356 قبل الميلاد بحرق معبد "ديانا" الرائع في مدينته من أجل أن يُخلد التاريخ إسمه.

2- "إيفيالت": رجل دولة إغريقي ديمقراطي إستولى على السلطة عام 490 قبل الميلاد وأحدث إصلاحات عديدة مستقلة عن (إسبارطة) مما أدى إلى إبتعاد الأرستقراطيين عنه. ساعد القائد الإيراني "كسرى" في تجنب مرور جيشه من منطقة (فيرمويل) التي يترصد فيها الجيش الإغريقي.

الحرباء(*)

يسير رئيس مخفر الشرطة "أوتشوميلوف" في ساحة السوق بمعطف جديد وفي يده منديل ويتبعه من ورائه شرطي أبرص يحمل غربالا مليء بعنب الثعلب تمّ مصادرتة للتو. يُخيم الهدوء على المكان... لا أحد في الساحة... أبواب الدكاكين المفتوحة والحانات تتطلع إلى ضوء النهار كالأفواه الجائعة ولا تجد بالقرب منها حتى المتسولين.

—هكذا إذن، تعض أيها الملعون؟—يسمع "أوتشوميلوف" فجأة—يا شباب! لا تدعوه يفر!! ممنوع العض هذه الأيام! خذ! آ.. آه!!

يُسمع زعيق كلب. يتطلع "أوتشوميلوف" ويرى كلبا هاربا من مستودع التاجر "بتشوخين" للحطب. ينطنط على قوائم ثلاثة ويتلفت من حوله ويجري خلفه، ماذا بجسمه إلى الامام رجل في قميص قطني مزركش مشيع بالنشاء وفوق القميص صدرية مفكوكة الأزرار. ويسقط الرجل أرضا ويمسك بقوائم الكلب الخلفية ويُسمع من جديد زعيق الكلب ونباحه—لا تتركه!. وتطل من الدكاكين برأسها وجوه ناعسة وسرعان ما يتجمع بالقرب من المستودع جمع من الناس كإن الأرض إنشقت عنهم!

—هنالك شعب أكيد ياسيدي!

يستدير "أوتشوميلوف" نصف إستدارة إلى اليسار ويخطو باتجاه الجمع. يرى بالقرب من المستودع ذاته الرجل المذكور آنفا بسترتة مفكوكة الأزرار رافعا يده عاليا ويعرض على الجميع إصبعه المدمى وكأن سحنته الثملة تقول: "أنا بالذات سأسلخ جلدك أيها اللعين" والأصبع المدمى ذاته رفعه على شكل راية النصر. تعرف "أوتشوميلوف" في هذا الشخص على الحرفي الماهر "خريوكين". وفي وسط الجمع إستلقى بطل الحادثة فارشا قوائمه الأمامية وجسده كله يرتعش—كلب سلوقي أبيض ذو بوز حاد وتُزين ظهره بقع صفراء وفي عينيه الدليلتين تعابير الغم والهلع.

—ما المناسبة.. هنا؟—سأل "أوتشوميلوف" مقتحما الجمع—لماذا هنا؟ هذا أنت.. لماذا الأصبع؟ من الذي صرخ؟.

—كنت أمشي، يا صاحب المعالي، لا أتحرش بأحد...—يبدأ "خريوكين" وهو يسعل في كفه—أتحدث إلى "ميتري ميتريتش" بشأن الحطب وفجأة عضني هذا السافل من إصبعي دون سبب يذكر...إعذرني على أية حال.. أنا رجل كادح أقوم بأعمال بسيطة...فليدفعوا لي جزاء ذلك لأنني لن أفلح في تحريك هذا الإصبع إسبوعا كاملا...لم يذكر القانون، يا سيدي مادة تُجبرنا على تحمل هذه المخلوقات... لو قام كل واحد بالعض لكان من الأفضل عدم العيش في هذا العالم...

-إحم! حسنا...-يقول "أوتشوميلوف" بصرامة وهو يسعل ويحرك حاجبيه- حسنا...لمن الكلب؟ لن أدع هذا من دون عقاب. سأريكم كيف تطلقون كلابكم! آن الآوان للفت إنتباه مثل هؤلاء السادة الذين لا يرغبون في التقييد بالمراسيم! وما إن أغرم أحدهم حتى يعلم النذل ما معنى الكلاب وغيرها من البهائم الشاردة! سأريه نجوم الظهر!...-يا" يلديرين"-يتوجه بكلامه إلى الشرطي- تأكد لمن الكلب وسجل محضرا! أما الكلب فيجب إبادته، فورا! قد يكون مسعورا...لمن الكلب، أسألکم؟
-ربما لسيادة العميد "جيغالوف"!-قال أحد الحضور.

-للعמיד "جيغالوف"؟ إحم!...إنزع عني المعطف يا "يلديرين"...يالفظاعة هذا الحر! ربما يسبق الامطار...الشئ الوحيد الذي لا أفهمه، كيف إستطاع الكلب عضك.- توجه "أوتشوميلوف" بكلامه إلى "خريوكين".-هل بإمكانه الوصول إلى إصبعك؟ إنه صغير أما أنت فيالك من مارد! على الأغلب جرحت إصبعك بالمسمار ومن ثم خطرت في بالك فكرة الكسب من وراء ذلك. أعرفك..يا لكم من ملاعين.
-قام، يا سيدي بحرق الكلب بالسيجارة، في سبيل السخرية فحسب، أما الكلب الملعون فعضه...إنه رجل مشاكس يا سيدي!

-كذاب أيها الأعور. لم تر شيئا، لماذا تكذب إذن؟ سيادته رجل ذكي ويفهم من الكاذب ومن ضميره صاف أمام الرب...وإذا كنت أكذب فالقاضي سيحكم بالعدل. القوانين لديه تقول يان الجميع الآن متساوون.. أنا بالذات، لعلمكم، لي أخ يخدم في الشرطة...
-لا تناقش!

-هذا الكلب ليس للعמיד...-قال الشرطي بترو- لا يوجد لدى العמיד من أمثاله. أغلب ما لديه هي كلاب صيد..

-هل أنت متأكد؟

-متأكد يا سيدي..

-لا داع لتعليمي، أعلم ذلك. لدى العמיד كلاب غالبية الثمن وأصيلة. أما هذا فلا أحد يعلم ما هو! لا صوف ولا شكل...قذارة فحسب..كيف يحتفظون بكلاب على شاكلته؟! أين عقولهم؟ لو صادفوا في "بطرسبورغ" أو "موسكو" كلب مثله، هل تعلمون ماذا سيحدث؟...لن يستعينوا بالقانون وسيباد فورا. أنت يا "خريوكين" تضررت، ولا تدع الأمر يمر بسهولة...حان الوقت لخاسبتهم!
-...قد تكون للعמיד...-فكر الشرطي بصوت مسموع.- خطمه لا يحدد صاحبه...قبل أيام شوهه كلب يشبهه في باحة داره.

-لا شك إنه للعמיד!-سمع صوت من الجمع.

-إحم!..هيا يا أخي "يلديرين" إلبسني المعطف...كإن الريح بدأت قهب...أشعر بالحر...خذه إلى العמיד وإسأل هناك وقل يانني وجدته وأرسلته...وقل له لا يدعه يخرج إلى الشارع...قد يكون غاليا، ولو قام كل

خزير بحرقها بالسيجارة قد يؤذيها. الكلب كائن رقيق...أما أنت أيها الأبله فإسبل يدك. لا داع لإستعراض
إصبعك السخيف! أنت المذنب!...

-ها هو طبّاخ العميد قادم، دعنا نسأله...إيه، "بروخور"! تعال إلى هنا يا عزيزي! إنظر إلى هذا الكلب. هل
هو لكم؟

-لا تُلفق. لم يكن لدينا مثله أبدا!

-ألم أقل لكم! لا داع للحديث مطولا هنا-قال "أوتشوميلوف"- إنه كلب شارد...مادمت أقول كلب
شارد فهو كذلك...علينا إبادته والسلام.

-هذا ليس كلبنا. أكمل "بروخور"- إنه كلب شقيق العميد الذي وصل البارحة. العميد لا تستهويه كلاب
الصيد. شقيقه وحده يهواها...

-هل وصل شقيقه "فلاديمير إيفانيتش"؟-سأل "أوتشوميلوف" وغمرت وجهه ابتسامة ودودة. -ياللسادة! لا
علم لي بذلك! إنه يستضيف أخاه؟

-يستضيفه...

-يا للروعة يا إلهي...لقد إشتاق إلى أخاه...لم أكن أعلم! إذن هذا كلبهم؟ إني سعيد جدا...خذه...ياله من
كلب رائع...جريء...عض هذا من إصبعه، ها-ها-ها...متوجها إلى الكلب: لماذا ترتجف؟ بررررر...إنه
يغضب الملعون...ياللدلال...

ينادي "بروخور" الكلب ويغادر معه مستودع الخطب...يستغرق الجميع في الضحك على "خريوكين".

-سألّقنك فيما بعد درسا لن تنساه!-يتوعده "أوتشوميلوف" ومن ثم يدس رأسه بالمعطف ويتابع طريقه بساحة
السوق.

(*)- نُشرت لأول مرة عام 1884 في مجلة: "أسكولكي" (شظايا) الساخرة، العدد 36 باسمه المستعار: "أ. تشيخونتي".

3	أغافيا
11	نهاية فنان
17	القراءة
20	متعهد مسرحيات تحت الأريكة(حادثة خلف الكواليس)
23	آنيوتا
27	الصيدلانية
32	من دون وظيفة
36	عارف الجميل
38	أسئلة إضافية
39	المأساة
40	قصص جزيرة ساخالين(حكاية يغور)
45	من يوميات معاون محاسب
47	دفتر الشكاوى
49	جزيرة ساخالين(يوميات مسافر)
56	الحياة رائعة
58	النصاب
59	معكر المزاج
61	مشاعر حادة
65	حديثي إلى إديسون
67	اللولب
70	سمة العصر
71	نصائح طبية
72	في عربة القطار
75	البدن والنحيف
77	الحرباء